كنيسة الله الخمسينية
٨ش احمد باشا كمال
بجزيرة بدران شبرا - مصر

الحريات المتكاملة

بقلم
القس صموئيل مشرقى

الحريات المتكاملة

INTEGRAL LIBERTIES

بقلم

القس صموئيل مشرقي

رئيس مجمع الله الخمسيني

صدر

بالقاهرة — جمهورية مصر العربية

يناير ١٩٧٥

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٢١٩٧

مطبعة الأمانة ٣ جزيرة بدران ـــ القاهرة

مقدمة تراث معلم الاجيال
القس صموئيل مشرقى رزق

بعد ان رحل عن عالمنا هذا الرجل العظيم فى فبراير ٢٠٠٩ وترك لنا اكثر من ٦٠٠٠ عظة مسجلة و ١٢٣ كتاب واكثر من ستون مؤتمرا وخدم جيله بامانة لاكثر من ستون عاما وجدنا حاجة المكتبة العربية والمصرية بوجه خاص لهذا التراث الثمين فقد وجدنا من الكتب المطبوعة اكثر من ٧٣ كتاب نفذت طبعاتهم فوضعنا على عاتقنا انقاذ هذاالتراث الثمين من الاندثار وحتى الان انجزنا اعادة طبع حوالى ٤٠ كتاب من اروع ما كتب ق . صموئيل مشرقى فى الدفاعيات والالهيات واللاهوت والمؤتمرات التعليمية ونصلى من قلبنا ان يكون هذا المجهود لمجد الله وامتداد ملكوته وتكريما لهذا الرجل الذى افسح المجال لعمل الروح القدس بداخله ليعزف على اوتار قلبه اروع النغمات ليخدم بها الهه ويمجده

لك عزيزى القارئ نقدم هذا التراث ونضعه بين يدى مسيحنا الحى ليعلو ويتمجد اسمه فى سموات بلادنا

محرر ومراجع التراث
د . ق . ديفيد عياد فخرى
راعى الكنيسة ورئيس مجمعها

مقدمة فى تاريخ الحريات

منذ وجد الإنسان على الأرض وهو يبحث عن نشأته ومصيره ، ويحاول اكتشاف سر وجوده ومكنونات كيانه ، وقد أحس بعدم كفاية قدراته العقلية لبلوغ هذا الهدف ، فاتخذ من ذلك الأساس الذى بموجبه جاءه « الإعلان » وهو إلهام الوحى فيما لم يصل إليه العقل ، وبذلك تابعت « كلمة الله » الإنسان من البداءة ، فأعلنت له بأنه كائن أدبى حر من حقه أن يمارس الحريات المشروعة التى وجدها فى كيانه بالفطرة متحققا من ذلك بنزوعه نحو هذه الحريات واستكمالها فى نفسه تلقائيا ؛ وذلك لأن الله قد أعطاها له ... فقبل أن تكتشف الفلسفة أن الإنسان يولد حراً وجدنا الكتاب المقدس يعلن أن آدم أبا البشر قد خلق كائنا حرا فلم يمنعه الله من الأكل من شجرة معرفة الخير والشر ، إذ لم يقيده ولا أحاط تلك الشجرة بسياج ما ، بل تركه حراً ، وأعطاه حرية كاملة لكى يختار : وهذا هو أساس اعتقاد الناس دائما بأنهم أحرار وهو مبنى على ما لديهم من شعور بالحرية وإحساس بها .. !

ولذلك فقد حولت الفلسفة ميدان بحثها من الوجود العام للكون إلى وجود الإنسان الخاص ، وكان ذلك على أثر الاتجاهات الجديدة التى ظهرت فى الغرب أثناء النهضة الفكرية والكشوف الجغرافية والحركة العلمية ؛ فقد دفعت هذه كلها الشعوب إلى ثوراتها التاريخية من أجل الحرية — فلم يلبث أن حدثنا التاريخ خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بوجه خاص وذلك من بعد الإصلاح الدينى الذى قام به لوثر عن « حق الإنسان فى الحياة وفى الحرية » ، وظهر مفكرون لوضع أسس الأنظمة الديمقراطية .

* * *

وكانت « الماجنا كارتا » أى « الوثيقة العظمى » التى صدرت فى انجلترا من الملك جون عام ١٢١٥ أول وثيقة للحريات ، فقد قضت للأفراد بعدة حقوق ومن بعدها بأربعمائة سنة ظهرت وثيقة أخرى مكملة لها تعرف بوثيقة « إعلان الحقوق » . . نتيجة للثورة الانجليزية التى حدثت سنة ١٦٨٨ ولقد كانت هذه المبادىء بعض قواعد الحكم وأصوله التى حملها معهم المستعمرون الانجليز عبر البحار إلى أرض العالم الجديد !

وكان من آثارها أن قامت الثورة الأمريكية وأعلن ممثلو الولايات المتحدة فى ٤ يوليو ١٧٧٦ « وثيقة الاستقلال » التى جاء فى مطلعها : « إن الناس جميعا قد خلقوا متساوين ، وأن الخالق قد وهبهم حقوقا لا تبديل فيها ولا تحويل من بينها حق الحياة ، وحق الحرية ، وحق السعى وراء السعادة » .

ولقد صدرت وثيقة حقوق أمريكية فى سنة ١٧٩١ تالية لإعلان الاستقلال وهى تتكون من عشر مواد هى « تعديلات » أدخلت على الدستور الأمريكى ضامنة لكافة الحريات ... !

وبدأت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ بعد انتهاء الثورة الأمريكية بست سنوات ، واعتبرت قول روسو : « يولد الإنسان حرا إلا أنه يكبل بالأغلال فى كل مكان » بمثابة إنجيل لها ، وبدأ الفرنسيون يشعرون بحقهم فى الحرية ، هذه الحرية التى اكتسبها شعب أمريكا فى الجانب المقابل من المحيط الأطلنطى ، فقاموا بمهاجمة الباستيل رمز الظلم والاستبداد فى ١٤ يوليو ووضع « إعلان حقوق الإنسان » وهو أعظم وثيقة أخرجتها الثورة الفرنسية وكان من أهم موادها :

— يولد الأفراد ويعيشون أحرارا ومتساوين فى الحقوق
— الحرية هى حق الفرد فى القيام بأى شىء بحيث لا يضر الآخرين
— حرية تبادل الآراء والأفكار هى أثمن حقوق الانسان

ولقد اتخذ الغرب كلمات : « الحرية — الإخاء — المساواة » ، وهى شعار الثورة الفرنسية أساساً للحكم الديمقراطى الذى اتجه إليه وأطلق على نفسه بسببها « العالم الحر » !

وظهرت الثورة البلشفية فى روسيا فى أكتوبر ١٩١٧ بفعل تعاليم « كارل ماركس » التى استحوزت على عقول الملايين ، وهى تقوم على نظام اجتماعى موحد ، أى ليس فيه طبقات ؛ لاعتقادهم بأن الحرية والمساواة هما أمران مشاعان للجميع ، واتخاذهم ذلك ذريعة للتخلص من الدين !

وكان « سارتر » هو أول من نادى « بالوجودية » التى ظهرت مؤخراً والتى وصل معناها إلى محاولة الادعاء بأن معنى الحرية هو الانفكاك من كل رباط وقيد والتعدى على كل قانون وحد ، ولا شك أن مثل هذه الحالة بعيدة كل البعد عن الحرية الحقة حتى أن الوجوديين أنفسهم أصحاب هذا المذهب لم يستطيعوا إطلاق العنان لأنفسهم ليفعلوا ما أرادوا ، ولذلك فقد رأوا الالتزام ببعض القوانين تجنباً منهم لمثل هذه الحرية الزائفة التى لا ينتج عنها سوى الفوضى وقلب الأوضاع ... !

ولقد كان للثورة المصرية مكانها أيضاً فى تأكيد الحريات فقد أعلن دستورها الأخير فى المادتين ٤٠ و ٤١ بأن « المواطنين لدى القانون سواء وهم متساوون فى الحقوق والواجبات العامة لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة » وأن « الحرية الشخصية حق

طبيعى وهى مصونة لا تمس ، وكان هذا التزاما بقبول « ميثاق حقوق الإنسان » الذى أصدرته الأمم المتحدة فى العاشر ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، ومع أن هذا الإعلان لم يكن أول وثيقة من هذا النوع ، فقد سبقتها « الماجنا كارتا » الإنجليزية ، « ووثيقة الاستقلال » الأمريكية ، و « إعلان الحقوق » الفرنسى إلا أن الإعلان العالمى الأخير يعتبر أهمها جميعا باعتباره أهم وثيقة أساسية من وثائق عصرنا الحاضر ومنهجا ينبغى على كل أمة متحضرة أن تسير بموجبه كالتزام أدبى بالنسبة لكل الدول لكى يتصرفوا طبقا له وأن يكون تطورهم وتدرجهم صوب الإقرار الكامل لكل الحقوق والحريات التى تضمنها ،

« فالماجنا كارتا » كانت خاصة بانجلترا ، و « وثيقة الاستقلال » كانت خاصة بأمريكا ، و « إعلان الثورة الفرنسية » كان خاصا بفرنسا ، وأما هذا الإعلان الأخير فإنه يشمل بنى البشر جميعاً فى كل العالم وهو يتضمن الاتفاق العام على تعريف حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ، وأهم نصوصه : —

المادة ١ — يولد البشر جميعاً أحرارا متساويين فى الكرامة والحقوق وكلهم قد وهب العقل والضمير . وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء .

المادة ٢ — يحق لكل فرد أن يستمتع بجميع الحقوق والحريات المقررة فى هذا الإعلان دون تفرقة أو تمييز من أى نوع كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى أو السياسة أو الأصل القومى أو الاجتماعى أو الثروة أو أى نوع آخر ودون تفرقة بين الرجال والنساء .

المادة ٣ — لكل إنسان الحق فى الحياة والحرية والأمن الشخصى .

المادة ١٨ — لكل إنسان فى هذا العالم الحق فى حرية الفكر والضمير والدين .

وهذه الحقوق والحريات الواردة فى المواد سالفة الذكر وفى باقى بنوده تشمل حق الإنسان فى الحياة والحرية والأمن والتحرر من الرق والاستعباد، ومن التعذيب ومن المعاملات والعقوبات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة وحقه فى حماية القانون له وفى التنقل وفى الجنسية وفى التزوج — وفى حرية الفكر والعقيدة والدين وحرية الرأى والتعبير وحقه فى حرية الاجتماع وتكوين الجمعيات الخ .

ولا شك أن هذه الحريات الأساسية التى تضمنها هذا الميثاق العالمى إنما هى دليل اهتمام الهيئة الدولية بالمصالح الإنسانية العليا وتدور حولها باعتبارها حقوقاً أصلية لكل إنسان — معركة مستمرة لاتنتهى تستلزم المحافظة عليها والانتباه الدائم لكل اعتداء على ضماناتها ، فكل استسلام لمثل هذا الاعتداء تحت ضغط الظروف فى وقت ما ، سيجر إلى استسلام آخر لاعتداء أكبر !

* * *

يتبين لنا من هذا السرد التاريخى كيفية حدوث التطور الفكرى فى العالم، فليست «إعلانات الحقوق» التى ظهرت فى التاريخ أكثر من مرة ، وفى أكثر من مكان ، وعلى أكثر من صورة ، إلا تعبير المجتمع عن الصورة التى يتصورها عن هذه الحريات لصالحه العام المشترك .

وعلى مدى ترقى المجتمع البشرى قد سار حثيثا فى السبيل إلى الاعتراف بحرية الفرد وتسليمه زمام نفسه ، وتحميله تبعات عمله ، ومن هنا فقد أصبح المثل الأعلى للمجتمعات أن تزيد من شعور أفرادها بالحرية ، حتى تسمو بهم من مستوى المسئولية القانونية — بحدودها الضيقة — إلى مستوى المسئولية الاخلاقية بمجالاتها الواسعة . فلا بد للمسئولية إذن من أن تنتقل من النطاق الاجتماعى الخارجى إلى النطاق الفردى الذاتى لكى تصبح دعامتها شعور الفرد

بحريته ، وإحساسه بنتائج أفعاله على صميم شخصيته ، وامتدادها بالتالى على المجتمع الذى يعيش فيه .

وهنا نكتشف الترابط المتداعى الذى يكشف عن التطابق البعيد المدى والأثر بين هذه الحركات التحررية و « معلنات الإنجيل » التى تقدم لنا « الحياة المثالية » التى يتم فيها التوازن بين ملكات الإنسان كطريق الانسجام بين عناصره للسير به قدما إلى الكمال من خلال مخاطر الحياة إذ أن الخلاص نفسه شوق نحو الوجود الأكمل والأتم بالوصول إلى ملكوت الله حيث لا تتوقف انطلاقات الحرية المجيدة .

وهكذا اكتسحت أسفار العهد الجديد الفوارق التى كانت قائمة حينئذ بين العبيد والأحرار ، وهدمت أسوار الاضطهاد والعنصرية معلنة إنجيل الحرية والمساواة بإنهاء الفوارق عنصرية وطبقية وجنسية على السواء مما كان يرزح تحته العالم الدينى القديم « اليهودية » وكذلك « الدولة الرومانية » التى تبنت الفلسفة الإغريقية فكانت مركزة على العبودية وحتمية التفرقة !

إن هذه الحريات الأساسية التى أعلنها الإنجيل — وهى مدار هـــذا البحث — لا يمكن أن تقارن بهـــا « الحرية الديمقراطية » التى يمارسها الغرب فى أوربا وأمريكا ، كما لا يمكن أن تتساوى معها « الحرية الماركسية » التى تهدف إلى مجتمع غير طبقى « شيوعى » وهو الذى تحاوله روسيا ، وكذلك يستحيل أن تصل إلى مستواها « الحرية الوجودية » المطلقة ، لأن الحرية أمر نسبى يقوم على متقابلات أى أن الإنسان إنما يكون حراً إذا لم تطغ حريته على حرية غيره ، فالحرية الحقيقية لا تعنى فرض القيود على أية حرية من الحريات ولكنها لا تعنى كذلك حرية الاعتداء على الآخرين فهى إذاً حرية ومحاسبة فى آن واحد . . وهى بذلك الضامن لسلامة الفرد حين تكون كرامته أو معتقداته أو ضميره أو حياته أو حريته فى الميزان ! !

تمهيد فى مفهوم الحرّية

لاشك أن الحرية هى أعذب الألفاظ التى وقعت على مسامع البشر إذ هى أعظم كمال للإنسان لأنها تعنى القدرة على تمييز الأشياء والاختيار بينها فيتمكن الإنسان بذلك من تدبير شئون نفسه ، وهو إذ يفعل ذلك نجده يراجع الماضى ويربط مابينه وبين الحاضر والمستقبل ، ويختار الأفضل من بين الأشياء التى تعرض له ، لأن الحياة بطبيعتها تميل إلى الترقى والتكامل ، وهو على هذا الأساس يضع خطة — فى حدود إمكانياته — لمشاريع المستقبل ويسعى لتحقيقها . .

يقول ديكارت عن ذلك : « إن علم الإنسان بحريته وقدرته على السيادة على أحوال نفسه وعلى حياته هو الشىء الحقيق بالتقدير بل وبالإغتباط والرضى . وذلك لأن الموجود البشرى هو الكائن الوحيد — بين الموجودات المنظورة — الذى يمكن اعتباره فاعلا عاقلا حراً ، أفعاله عقلية إرادية ومعنى ذلك أنه لا يتقيد إلا بنفسه ، ولا يخضع إلا للقاعدة الكلية التى تجعل منه مواطناً فى عالم الكائنات العاقلة الحرة ، وهذا ما يضفى كرامة مطلقة للشخص الإنسانى تجعل منه مخلوقا جديراً بالاحترام إلى أقصى حد . .

ولذلك جاء فى الميثاق : « إن حرية كل فرد فى صنع مستقبله ، وفى تحديد مكانه من المجتمع ، وفى التعبير عن رأيه ، وفى إسهامه الإيجابى فى قيادة التطور وتوجيهه وتجربته وأمله هى حقوق أساسية للإنسان ولابد أن تصونها له القوانين » .

وفى الواقع ليس هناك إختلاف كبير فى ماهية هذه الضمانات التى تحمى حرية الفرد ، ولكن النقاش يحتدم حين نعرض إلى تحديد معانيها باستعراض مراحل الآراء المختلفة التى دارت حولها وهى تحاول معالجة جميع جوانب المشكلة فى عمق وتفصيل — وذلك لأنه لا يجوز من جهة إطلاق الحرية الفردية دون ضابط أو التزام بمستويات أو قيم عامة كما لا ينبغى من الجهة الأخرى إقامة نظام يسلب حقوق الأفراد وينكر عليهم حريتهم . .

إن هذه هى مشكلة البشرية بأسرها ، وهى هكذا ليس فقط لأن الحرية ضرورة أبدية — فهذا أمر ثابت يقينى فى ميدان النظر والواقع والعمل — بل ولأن الحياة نفسها تصبح بلاقيمة عندما يمتنع تشكيلها وفقاً لهذه الحريات المتكامله ، التى تصل بمن يبلغها إلى قمة السعادة فى الدنيا والآخرة . . وهذه هى « المثالية الحقة » التى قد يسبق أصحابها من ذوى الرسالات الدينية أو الإنسانية أو العلمية أهل زمانهم فى الإيمان بها والدعوة إليها بثبات حتى تتحقق وتستقر فى أذهان الكافة وتصبح حقيقة واقعة لا ريب فيها . .

* * *

والحرية إذاً هى أولا وقبل كل شىء هى خاصية التصرف أو العمل فى استقلال عن أية علة أجنبية ، إنها القدرة على فعل الأشياء كتنظيم الحوافز وتهذيب الميول وتوجيه السلوك — ففى وسع كل إنسان أن يفعل أو أن يمتنع عن الفعل ، أن يقبل أو يرفض ، أن يقول نعم أو لا .

وهكذا نجد الحياة الإنسانية فى مجموعها سلسلة من الاختيارات المستمرة فإن كل فعل نحققه أو كل اختيار نقوم به ، لابد من أن ينطوى فى صميمه على حكم من أحكام القيمة ، وهى تقوم على الإختيار والتمييز والتفضيل ، ولذلك

فإنها تقوم بدور المحرك للفعل . وآية ذلك أننا ننظر إلى الأشياء على أنها ملائمة أو غير ملائمة ، جذابة أو منفرة ، مرضية أو غير مرضية .. إلخ فالحرية تفترض وجود فعل أو تصرف حققه شخص ما أو تسبب فى حدوثه ، وكان من الممكن ألا يفعله . . وفى وسع الإنسان عن طريق هذا الفعل الحر تحقيق ذاته على نحو إبداعى يعبر به عن شخصيته ، ولذلك فإن الحرية هى صميم الوجود الإنسانى وهى فى غير حاجة إلى دليل أو برهان وذلك لأن مجرد حضور الذات أمام نفسها ينطوى هو نفسه على الحرية ، ومن ثم فان جوهر الحرية هو قدرة مباشرة على التحرر من شتى القيود لإحضار الذات أمام نفسها ، ومثل هذا التحرير هو المقصد النهائى للبشرية بأسرها . وهو يذكر البشر بأن لهم تاريخاً واحدا وحقيقة واحدة ، وأن عليهم أن يمارسوا حريتهم فى كتابة هذا التاريخ وتحصيل تلك الحقيقة .

فالحرية هى اختيار الفعل عن روية مع استطاعة عدم إختياره أو استطاعة اختيار ضده وهى لا تحتاج إلى اثبات ، فان لنا إحساساً باطنياً يوحى إلينا بأننا أرباب أفعالنا .. لأن لنا قدرة الإختيار حرة طليقة غير مشروطة ، ولذلك فان القول بالحرية إنما يعنى بأن الانسان مسئول عما يفعل وسواء شعر بمسئوليته هذه أمام غيره من الناس أم أمام نفسه ، فإنه فى كلتا الحالتين إنما يتعرف على فعله بوصفه صنيعة يده : هذا هو أساس المسئولية وهو يعنى أن الانسان ككائن حر مكلف أدبياً لأنه لا يمكن أن يساق إلى عمل ما بغير رغبته ، وهذا يظهر فى محاسبة الانسان لنفسه ومحاسبته للآخرين مما هو ظاهر فى تأنيب الضمير وإبداء الأسف بل والاعتذار ، وهذا ينفى انقلاب الانسان على أمره فى أفعاله بحجة أنها مقدرة عليه إذ لو كان الأمر هكذا لما وجدنا تفسيرا مقبولا لظاهرة الحرية ولما جاز محاكمة البشر ولا معاقبتهم ، ولما كانت هناك قيمة لإنذارهم وتحذيرهم ، بل ولما كان هناك داع يستوجب الشرائع

الالهية والقوانين الوضعية لأن كليهما يتعامل مع البشر على أساس حريتهم وقدرتهم على الاختيار دون ضرورة خارجية تحتمه . . !

هذا التشكيف الأدنى — وهو أهم مظاهر الإنسان ويعززه العقل — هو علة وجود القانون ، وكما يقول كنط : « إن القانون يبرهن على الحرية ، والحرية تفسر القانون ، حتى أن المجرم يقر بسمو الفضيلة التى يخالفها . فالقوانين إذاً واحده بالنسبة إلى موجود حر لا يستطيع أن يعمل إلا مع تصور حريته » .

وهنا تقوم مسئولية الإنسان فى كل ما يعرف وما يستطيع وهو مع الأحكام والإجادة والاحتياط قادر على أن يشكل حياته أو يصوغ مستقبله . .

* * *

بيد أن البعض ينكر على الإنسان هذه الحرية ، ويميل إلى القول بأن هناك ضرورة أو ضرورات مفروضة على الإنسان هى التى تحدد سلوكه ، فتصدر أفعاله عن طبيعته الخاصة التى ترجع إلى ما ورثه عن أسلافه منذ القدم أو عن مؤثرات البيئة الخارجية المحيطة به صدورا حتمياً لا أثر فيه لأى الإختيار . . . وأن السلوك الإنسانى لذلك لا يخرج عن كونه تفاعلا يتم بين الشخصية والمواقف الخارجية . . على أن أصحاب هذا الرأى يخلطون بين الحرية الصحيحة والحرية المطلقة (الفوضى) فيظنون أن الإنسان الحر هو ذلك الموجود الذى يعمل بدون باعث على الإطلاق ، وهم إذا كانوا يناصرون قضية الضرورة ، فذلك لأنهم لا يفهمون إن الحرية تفترض دائماً ضرباً من التنظيم العقلى وتقوم باستمرار على فهم حقيقى لبواعث السلوك البشرى وهذا ينفى تحديده تماما بمقتضى بعض الضرورات المفروضة . بل إن مجرد شعور الإنسان بالضرورة يدل على أنه يتمتع بالحرية ، فالذات التى تدرك الحتمية انما هى ذات حرة تملك توجيه نفسها ... كما أن قابلية تفسير الأفعال لديها انما

تعنى انها لا تتصرف تحت تأثير ضرب من « القهر » أو « الإكراه » ...

وليس الخصم الحقيقى للحرية هو مذهب الحتمية الذى سبقت الاشارة إليه بل هو بالأحرى ذلك المذهب الفاسد — الذى قامت عليه الوجودية — وهو القائل بالحرية المطلقة أى التى لا حدود لها إذ هى تنتهى إلى الفوضى .. على أن القول بأن الإنسان حر حرية مطلقة ينطوى على تناقض خطير يجعل من الحرية نفسها مبدأ « لا معقولا » ليس له أدنى معنى ، ولو سلمنا بوجود مثل هذه الحرية فسيكون من العسير علينا أن نفهم معنى الالتزام — صحيح أن حريتى قد تستطيع أن تحول مجرى حياتى من اتجاهه التلقائى ، ولكن مثل هذا التغيير لابد أن يتم على شكل سلسلة من الانحناءات الصغيرة ، لا على صورة تحول فجائى ، فليست الحرية الانسانية حرية مطلقة بل هى دائماً « حرية مجاهدة » ، أنها وثيقة الصلة بالافعال الذاتية ومن شأنها أن تبدع القيم وتخلق المعايير لذاتها وبذاتها عن اختيار حر ووعى مستقل معلق على ذاته ولكنه أيضا عملية تحرر يشارك الإنسان عن طريقها فى حركة التاريخ ... !

ومن ثم فبالرغم من أن الحرية هى فى الأصل مجرد منحة ، إلا أن على الانسان أن يتجه نحوها ويتحرك صوبها حتى لا يفقدها أو يفرط فيها ، فهى لذلك لا تتجلى إلا عبر عمليات اختيار متلاحقة تتخذ طابع صراع مستمر دون تحديد لاختيار تصميم واحد منها مرة وإلى الأبد — وكل اختيار لابد أن ينطوى على ضرب من « المخاطرة » أو « المجازفة » لأننى لا أعرف من أكون على وجه التحديد ، أو من أنا فى الواقع ونفس الأمر ! ولكن الذى لا شك فيه أن على دائماً أن أظل مخلصا لذاتى ، وأن أحاول الوصول إلى مستوى الوجود الأصيل الذى أصبح معه « ذاتا حقيقية » — ومن هنا فليس فى وسع الذات إلا أن تستمد معاييرها من أعماق وجودها محاولة دائما أن تخلق بمحض حريتها مبررات سلوكها وأن تتحمل نتائج أفعالها ... !

فإذا ما أردنا الوصول الى مرتبة « الوجود الأصيل » فيجب أن نرجع إلى ذواتنا لكي نأخذ على عاتقنا مسئولية وجودنا لكي نبلغ إلى الوجود الفعلي الذي فيه نلتزم بالحرية والمسئولية . لقد قذف بالانسان إلى عالم الأشياء وسط غيره من الحقائق الواقعية ، وهو مهدد بالتالى لخطر الاغتراب عن الذات والسقوط فى عالم الموضوعات ، إلا أن فى وسعه عن طريق الحرية أن يسترد ذاته الحقيقية وأن يعمل على تحقيق وجوده الأصيل !

فإن بمجرد إدراكنا لوجودنا فى العالم بوصفنا موجودات حرة لكل منها مجموعة خاصة من الإمكانيات ، هذا الإدراك سرعان ما يضعنا رجهاً لوجه بإزاء المسئولية الخطيرة التي لابد لنا من أن نفصل فيها لحسابنا الخاص .

ليست الحرية إذاً حقيقة موضوعية تقبل الإثبات أو النفى بل هى حياة الشخصية الإنسانية . . إنها تنحدر إلينا من أصل مجهول تغلفه الأسرار وهى غير قابلة للتصور . . أى أننا لا نعرفها فكرياً بل من خلال فعل الوجود نفسه — أى أن كلا منا يستشعر حريته من صميم ذلك الاختيار الوجودى الذي يحققه لأن الحرية هبة أو منحة علينا تقبلها دون أن نكون الأصل فى خلقها .

فالإنسان إذاً إنما هو وعى أصيل هيهات لنا أن نجعل منه مجرد موضوع يقبل التفسير — ومعنى ذلك ضرورة فهم العلاقة الإيجابية التى تربطنى بكل حدث نفسى حتى أتحقق بوضوح من أنى فاعل مسئول وإنى الاصل فى شتى مظاهر سلوكى .

والحرية كذلك ليست حقاً مغتصباً لا يمكن نواله إلا بصعوبة متناهية — إنها هبة فطرية وكثيرا ما لا نعرف ماذا نعمل بها رغم أنها شعار الأمل ورمز الكفاح وهى قابلة للاتساع وإلا أضحت قيدا من الصعب ان نتحرر منه كصعوبة التحرر من تحكم الأشياء وجواذب اللذات وضغوط الرأى العام .

ويختلف مفهوم الحرية باختلاف مجالها فهى عند الشاب فعل ما يشتهى كأن يتحرر من ادارة والديه ويبحث عن المخاطرات لكى يعيش حياته كما يتصور . . . وهى عند الرجل الرغبة فى الهروب من واقع الحياة والتزاماتها حتى يكون فى النهاية متمتعا بحياته الخاصة . . وبالنسبة للسجين فانها انتهاء الانفصال الذى أوجده له السجن والانطلاق منه وفى لغة السياسة هى التحرر من سيادة الأجنبى والتمتع بالحكم الذاتى وفى دائرة المجتمع نجدها تعنى مجرد الحصول على ظروف خارجية معينة .. ولكنها بحسب لغة الدين تعنى بلوغ حالة داخلية معينة يتم فيها للانسان ضبط النفس وتوجيه القوى الوجهة السليمة المطلوبة .

ولذلك ظهر المفهوم الدينى للحرية فى معنى الخضوع الكلى لله دون استسلام للقدرية التى تجسم عوامل الوراثة والبيئة فى سبيل تحطيم المسئولية الأدبية ، وهذا فى الواقع يعتبر مولد الدكتاتورية الفردية التى تحاول أن تفرض حكمها بالقوة بزعم أن للكائنات البشرية مطلق التصرف الأمر الذى يتنافى مع سجل تحركات الحرية فى الكتاب المقدس منذ أعطاها الله للانسان وكان يدربه عليها تحت الناموس الى أن ربطها بالسلطان فى عهد النعمة الأمر الذى قد جعل من العبد حراً برغم بقائه فى العبودية ، ولأجل ذلك فان المسيحية باسم العدالة وكرامة الانسانية قد حاربت الرق ومنعت أنواعا معينة من العمل كما طالبت بالحريات الأساسية فى العالم .

هذا هو المفهوم الدينى للحرية وقد ظهر فى حياة المسيح بحالة مثالية تدعو البشر اليها حتى يتحرروا ويجدوا فى الحرية علامة الانتصار الشامل، وبذلك غدا من المسلم به عن الحرية انها الشرط الجوهرى للحياة ولما كانت الحياة هى جوهر الوجود عموما كانت الحرية هى جوهر الوجود السليم حتما — حتى انه ان وجدت حياة بدون حرية وقد يكون الصراع علامتها فانما تكون فى حالة العبوذية ، وهذا ما يمكن أن يشاهد فى الحياة الروحية أيضا ، لذلك فان المسيح الذى يعطى هذه الحياة ، هو الذى أعد لها كل ما يلزمها من تحرير . . ؛

فالحياة المتحررة تعنى إطلاق نشاط الكائن الحى وقواه لتعمل بلا عائق أو حاجز — ويعتبر الكائن حرا إذا عاش وتحرك فى توافق تام مع كيانه بلا إزعاج أو تعطيل لقواه — هنا يجد تدعيمه وحريته . . .

وهكذا فى الطبيعة يكون المخلوق حرا إذا استطاع أن يتحرك فى عنصر بيئته فان لكل نوع من الحياة نباتية أو حيوانية أو روحية بيئتها المناسبة حتى تجد التدعيم فى نطاق الحرية التى أوجدها لها الله لتنظيمها بحسب ناموس وجودها : فلقد أوجد الله لكل كائن نطاقا من الحرية حسب الطاقة أو الحد الذى رآه لازما له ، فالنبات مثلا يحتاج لأجل نموه إلى تربة جيدة وماء كاف مع الشمس والهواء وبدون هذه كلها نجده يذبل وييبس ويفقد رونقه لأننا منعنا عنه حريته أى البيئة الصالحة التى ينطلق فيها ويكون حرا كما خلقه الله : إن هذه العوامل لا توجد الحياة أصلا ، ولكنها تقدم ما هو لازم لامتدادها وبمقدار نشاط هذه العوامل بلا عائق تكون حرية الكائنات . . . وكذلك على نفس النمط لا يستطيع المخلوق أن يكون حرا ويتحرك إلا فى بيئته الطبيعية

الخاصة به : فالطير يكون حرا فى الهواء ، والسمك فى الماء ، خذ أيا منهما من بيئته فتنتهى حريته ، إذا غيرت أو عدلت بيئته فأنت بذلك تحدد أو تنهى حياته !

* * *

وهكذا ترك الله للإنسان فى عالمه حرية التصرف وجعله وكيلا ووضع عليه مسئولية نفسه : لذلك فان كلمة الله لا تقر القدرية ولا المصادفات ولا الحظ وتعتبر هذه الكلمات من اختراع البشر ليمتنعوا عن مراجعة أنفسهم بموجب القوى الممنوحة لهم من الله والتى بمقدور الإنسان إذا أحسن استخدامها أن يتبصر بعواقب الامور فيراها قبل وقوعها بل والشروع فيها فيتساءل هل هذا الذى أنا مقدم عليه خير أم شر وهل يتفق مع الحق أم هو مجرد هراء !؟

وبذلك فإن الشعور بالذات — أى الوجود الخاص أو الشخصية — يزداد بمقدار ما يتزايد الشعور بالحرية وبالتالى بالمسئولية . والذات الحقة هى الحرة إلى أقصى درجات الحرية الحاملة لمسئوليتها بكل ما تتضمنه من خطر أو قلق أو تضحية ، والحرية إذاً هى رمز انعكاس الصورة الألهية فى الإنسان والمعنى الأسمى لكل وجود إنسانى حتى إنها لتتساوى فى قيمتها بالخلود . . !!

فليس ثمة شك فى أن الحرية لم تفقد شيئاً من قيمتها المثالية فهى لازالت تمثل تقدما هاما فى مصير الإنسان ، ولكنها يجب أن تتمشى مع مقتضيات الحياة المعاصرة حتى تحتفظ بحيويتها متجددة وذلك لأنه لا يجوز أن تكون للحرية خصائص جامدة ، بل هى بطبيعتها تتابع التطور فى الحياة الإنسانية تلقائياً لتطبعها بطابع الخلود ! !

* * *

الفصل الأول

حرية الفكر

« وتعرفون الحق والحق يحرركم » (يو ٨ : ٣٢)

يقول بسكال : « إن الفكر الحر هو سر عظمة الإنسان » لأنه يقوم بالعقل الذى هو مقياس الأشياء ، وهو جوهر كيان الانسان لأنه أداة المعرفة .. عن طريقه يكتشف كل امرىء وجوده الانسانى نفسه إذ به يستطيع أن يعاين العـــالم وكل ما فيه فيميز ما يحتويه من خير وشر .

ومن المتفق عليه بالاجماع أن العقل هو القوة الوحيدة التى لا يملك البشر غيرها حكما مشتركا بينهم : إنه عام وشامل بحكم ماهيته نفسها كحلقة الاتصال التاريخى والاجتماعى بين البشر باعتباره تاج الملكات الفطرية الممنوحة لكل إنسان فهو قوة التمييز والحكم التى يبنى عليها حكم الضمير وتفسيرات الارادة . . وهو قوة للمعرفة أو العلم لتلقى نور إعلان الحق باستنارة مباشرة عن طريق الملكة الروحية التى يسميها البعض « البديهة » ويعتبرها بعضهم « الحاسة السادسة » وهى التى توضع فى مقابل الانفعال أو العاطفة لتعين الانسان على بلوغ هدفه فى الحياة أيا كان نوعه . وقد ربطه اليونانيون بالتناسب الصحيح وبالعدل ، وفى العصر الحديث يعتبر عنوان سيادة الانسان على الطبيعة . . .

ولا شك أن ما بلغه شأن العقل بذلك يستلزم تجنب إساءة استعماله وذلك بتدريب النفس على مواجهة كل شيء كما يليق بكائنات عاقلة — لا بالعاطفة الهوجاء بل بفحص وتشريح الحقائق الواقعة وأيضا باكتساب وجهة نظر صحيحة عن الحق كشيء فى منتهى الأهمية لقيمته فى ذاته وما يترتب على ذلك من نتائج ، وهذا مما يسهل علينا أن نزدرى بكافة أنواع الخداع وأشكاله ، وقد دلت التجربة على أن أقوى المغالطات لا تخدع أبداً أصحاب العقل السليم بل المغالطين أنفسهم ..!

ولذلك يقول بسكال فى « خطراته » : « ما دام الانسان قد ولد ليفكر فسيظل سلوكه وليد الحكم الصائب ، والتنظيم العقلى السليم .. وهذا يستلزم جهدا عقليا حتى يكون الحق واضحا بنفسه لكونه النور الذى يسطع دون حاجة إلى برهان أو دليل »

كما يقول وليم جيمس أبو علم النفس الحديث : ولدت وفى نفسى نزعة فطرية تجعلنى أجد اللذة القصوى فى اكتشاف الحقيقة بنفسى » ولكنه يستطرد إلى القول : « إن الفرق بين العباقرة وغيرهم ليس مرجعه إلى صفة أو موهبة فطرية للعقل بل إلى الموضوعات والغايات التى يوجهون اليها اهتمامهم وإلى درجة التركيز التى يسعهم أن يبلغوها وقد أوتينا جميعا هذه القدرة ولكننا ندعها تضيع !!

فالحقيقة (وهى الهدف النظرى الرئيسى لكل تفكير عقلى) ترتبط لغويا بالحق الذى يدافع عنه الانسان ، وإذا كان العقل قد ارتبط بالنور والعدل فان انعدامه قد ارتبط بالظلام والظلم — أى ظلام الجهل

وظلم الحقيقة — ولذلك كان الدفاع عن العقل دفاعاً عن الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية وهو يظهر فى عهد الوفاء فيمن ينذرونه للحياة من أجل الحقيقة الحرة وحدها التى يهتدى إليها برأى العقل بعد البحث الواجب وذلك لأنها ترتبط بالحق فاننا لا نتحققه إلا بها فان صدق الفكرة لا يكاد ينفصل عن « طريقة تحقيقها » وهنا يظهر العقل كمبدأ الوحدة الروحية بين النفوس وهو ايضا الدعامة المثالية للوحدة بين البشر ، وليس أخطر من تصور محاولة الاستغناء عنه أو الانصراف النهائى عن الاستضاءة بنوره :. فان ذلك بلا شك اجحاف بسلطة العقل باعتبارها أعلى السلطات فى كيان الانسان فهى التى تقرر اختيار الأفعال وتصدر حكمها إلى الارادة للتنفيذ ... حتى إن حياة الانسان ذاتها قد أصبحت تنظم على أساس يستحيل تصوره بدون العقل ... وذلك ليس فقط بالنسبة لما يقرره كل فرد لنفسه بل وفيما يجب الوصول إليه من تطابق بفعل تقريب وجهات النظر فى المجتمع الواحد .

* *

وقد بدأ الانسان جولاته الفكرية بالبحث عن الوجود ومن خلال ذلك انتقل إلى البحث عن وجوده هو وقياس سلوكه على المثل العليا التى تشكلها الأفكار ويتطلع اليها المجتمع ويقوم بحمايتها وهى الجمال والخير والحق هنا بدأ العقل يتحرر من الناموس الجماعى الهائل الذى يريد أن يسيطر وأن لا يرتفع صوت واحد بكلمة تخدش إجماعه وكأنه إجماع مقدس منزل من السماء . وحرية العقل هنا تظهر فى إعمال عقلك فى الوصول إلى رأى معين ثم التصرف على أساسه وهذا يختلف

عن مجرد مراعاة العرف الاجتماعى العام أو التفكير السائد سواء كان خطأ أم صوابا ، وخوفك منه إلى درجة إيثارك التصرف بناء على أساسه وليس بناء على رأيك أنت وحكمك وتقديرك بعد التأمل العميق المبنى على جهد تفكيرى كاف ، وذلك لأننا ما دمنا بشراً فهناك الاختلاف فى وجهات النظر ولكل منا دعواه وحججه ومنطقه ، ولكننا حتى كأفراد فى حاجة إلى مراجعة مواقفنا المتعقلة جداً التى تخشى الاختلاف والخروج على المألوف . وفى حاجة أشد لتشغيل العقل الفردى والدفاع عن الرأى الخاص والكف عن الاختفاء جبنا وراء النفاق نفاق ناموس العرف العام ...

ومن ثم فان الرغبة فى إعطاء العقل مزيداً من « الحرية » تبدو فى معنى مزدوج هو تجاوز القديم بعد تصوره وخلق الجديد . . . فالعقل يسعى إلى ان يكون له حرية حتى ازاء مبادئه الأساسية وبديهياته المطلقة ، وهو يهدف إلى تأكيد طابع الحرية بازاء كل نوع من الإلزام والضرورة . . وهو يود التحرر من كل ما هو مطلق أو تقليدى أو مألوف ولذلك فان تضييق الخناق على العقل إنمـــا هو بمثابة تبديد لحريته ، وأيا كانت السلطة التى تدعى معرفة كل شىء وأنها قادرة أن تدبر أمور الناس وتفكر بدلا منهم ، ومهما كانت العلة كأن تكون بسبب طول إعتياد الناس إلغاء عقولهم ، وقد يقترن هذا الصدأ الفكرى بعامل الخوف من التفكير الحر ، وذلك بالرغم من أن القيد الفكرى أخطر مثة مرة من سائر القيود الأخرى ، فان ذلك يمنع إدراكهم الصحيح للأمور الذى يمكنهم من تفسير كل المواقف فى نور التفاصيل الصحيحة

المضبوطة كلها وتحليلها على ضوئه الأمر اللازم جداً لنمو شخصية الفرد ونموها .. وهذا هو طريق السعادة فهى ليست ثمرة اللذة وإنما هى ثمرة نمو العقل وتفتحه والتوفيق بين السلوك والمبادىء حتى لا تكون الحياة سخيفة.. هذا التفتح الارتباط بأمور مختلفة يمنع التحيز والتعصب وهو يستلزم المحايدة الفكرية وهى تعنى الاستعداد لقبول فكرة جديدة متى ظهر صوابها ، بعد أخذ آراء الناس (كل الأطراف) ومناقشتها والحرية هنا هى مفتاح الذهن ليدفع به للانطلاق فينقل صاحبه إلى تطورات يقوم بدراستها على أفق متسع واتجاهات جديدة منطلقة نابعة من تفكير متجدد والانغلاق التقوقع فى إطار معين فتمر الأعوام والحالة لا تتغير ..

هذا هو التفكير الخلاق . هو مقدرة تنقل صاحبه من مجرد ناقد إلى عقل مفكر يكتشف الرؤى الفكرية الجديدة وأبعاد المواقف أكثر من سطحيات الأمور ويتنبأ عن النتائج المنتظرة ، إن له تفكيره الخاص الذى به يسير العقل فى اتجاه معين ليكون أكثر من ناقل وحتى لا ينحصر فى نطاق معين ، لأن هذا هو الجمود الذى يمنع الانطلاق إلى آفاق جديدة وهو صفة أساسية للتفتح ومواجهة المشاكل والمواقف والأزمات .

* *

أما قول البعض « بأنه لا حيلة للمرء فى أفكاره» فإنه قول مردود لأن السيطرة على آلة التفكير ممكنة فى كل آن ومكان وهى عظيمة الأهمية

لأنه لاشىء يحدث لنا خارج عقلنا ، ومن ثم فانه بدون القدرة على تركيز الخواطر وحصر الذهن وضمان التنفيذ تصبح الحياة التامة الصحيحة مستحيلة وهذا أوضح من أن يحتاج إلى بيان . . حتى انه إذا ما اختلف الناس بعضهم مع بعض على شىء تولاه العقل بالتحليل والحساب ، بل انهم يراجعون تحليلهم وحسابهم ، حتى يذعن المخطىء للمصيب على خلاف الرجوع إلى العواطف والأهواء فيه والتى لا أمل عندها فى إقناع أو اقتناع ومع ذلك فإن الميل معها أسهل لدى الناس من التمسك بالرأى الذى يرونه بعقولهم ، مع أن رؤية العقل هى مجال اليقين أما طريق العاطفة فكله ضباب .

والعقل — آخر الأمر — هو التخطيط المدروس المبنى على مسح إحصائى للواقع كما هو قائم بعد تطويعه تطويعا يحقق الأهداف التى ننشدها ، نواجه به طوفان الخرافات التى تربط المسببات بغير أسبابها ، فنجد فيه معيارا فى التأويل نستخرج منه المعانى المقبولة عقلا ... وهذا ما حدا إلى القول : « بأن أغلى ما فى الوجود هو العقل ففيه إعلاء لقـــدر الإنسان وحريته باعتباره طريق التطور والتكامل ، فما أكثر ما أوصلت مناقشة فكرة مسلم بها إلى دحضها والإعراض عنها لإحلال ما أثبت البحث سلامته . فإن الكفاح من اجل فكرة إنما يعنى إمكانية التوصل إلى اعتبارها من جانب الجميع حقيقة مستتبة . . . » .

ولذلك فان الحد الأدنى من حقوق العقل المشروعة هى حريته فى التعبير عن نفسه باعتباره « النور الفطرى » الذى يهدى إلى الصواب ،

وهو أعدل الأشياء قسمة بين الناس ، لذلك ارتبط العقل دائما بالحرية فكان الفعل العقلى هو بعينه الفعل الحر ، ولما كان العقل أداة بمقدور كل طبقة استعمالها ، لذلك فقد نشأت حركات التحرر الدينى داخل الكنيسة باسم « العقل » ، وثبت من ذلك امكانية أن يكون العقل دعامة الإيمان لامقوضا له كما يرتئى البعض : وهكذا انتصر العقل بفضل الحرية على الخرافة والتسليم المسبق والسلطة المتوسطة ،واستطاع العقل المتحرر أن يفرض حرية تفسير نصوص الوحى وعدم التسليم بصحة تفسير معين ما لم تثبت صحته وهكذا قد دفع التفتح إلى التحرر من بعض القيم القديمة بعد أن جعل من الاقناع الحر القاعدة الصلبة للإيمان ، وبدونه يصبح الإيمان تعصبا ، والتعصب هو الحاجز الذى يصد كل فكر جديد ، ويترك أصحابه بمنأى عن التطور المتلاحق الذى تدفعه جهود البشر فى كل مكان !

وانتهت بذلك مشكلة التوفيق بين العقل والإيمان : فلم تعد باقية بعد محاولة السماح للعقل بالتحرك فى الحدود التى يسمح بها الإيمان فقط ، كما لم يعد الإيمان يمثل فى ذاته بالضرورة قوة مضادة للعقل أو حتى مخالفة له رغم ارتباطه بسلطة الوحى وهى الهية تعلو على العقل نظراً لضعفه وقصوره : على أن ذلك لاينفى أن « الواقع » شفاف أمام العقل وهو الذى يشكله إذ أن وظيفته هى كشف الواقع والسيطرة عليه من أجل التنبؤ بمساره وذلك لكى يتم الانتقال من الحالة الواقعية إلى تلك المرغوبة أو المتوقعة ، فلا يكون التفكير فى المستقبل مجرد تطلعات بل

مسئولية تحتم على كل منا أن يكون ايجابيا إزاءها وذلك تأسيسا على الحرية التى تعطى للعقل دوره فى تشكيل التاريخ الانسانى :

* * *

وحرية العقل هنا تتوقف على البيئة المعينة التى تناسبه وهى « الحق » فلن يكون الفكر حرا ما لم يستغرق فى الحق ويتوافق معه فتنتهى بذلك ظلال الغباوة والجهل التى استعبدت العقل بسبب السقوط الأصلى فى الخطية ويسترد العقل حريته بمعرفة الحق كوعد المسيح « وتعرفون الحق والحق يحرركم » وبذلك يتحرر الحق من التعصب والخرافات ويسترد بصيرة التمييز والحكم بتطبيقه لكلمة الله باعتبارها نور الحق الذى يكشف لنا حقيقة كل شيء خلال أفكار البشر وآرائهم المتنوعة . والبصيرة هنا وهى النور الداخلى الذى ينعكس من التطلع إلى ناموس الحرية الكامل تشبه نور الفجر ، انها بدء انفجار النور فى كياننا الداخلى الأمر الذى يؤدى بنا إلى الحكم العادل وليس حسب الظاهر وهنا نجد العقل المتحرر وقد أصبح من أعظم وسائط الاسترشاد لأجل إصدار القرارات السليمة الحكيمة المقنعة عندما يسبح فى بحر الكلمة المكتوبة ويستخرج منها لآلىء الحق المكنون فى أعماقها . . .

إننا باستمرار نجزم فى أمور بالشعور وباللاشعور وكلاهما متصل بالفكر ، وما التشكيل الناتج سوى انعكاس للفكر . وبوسعه أن يستفيد من الذخيرة الكونية التى تحيط به إذا تجاوب معها وخصصها . إن كل تفكير خاص بالاملاك الشخصى يجب أن يسقط من الحساب

قبل الحصول على هذه الامدادات غير المنظورة . فإن الامتلاك المادى بعيدا عن الافكار الكونية لن يدوم إذ سيعلوه الصدأ ويتعرض للصوص إذ العبرة بما وراءها من علم ، مقدرة ، موهبة عقلية أو فصاحة .

وهنا نجد أن العقل الذى يقف عند حد الامتلاك الشخصى هو الذى يحدد الفكر ويعتقله فيمتنع عليه تلقى الامدادات الآلهية التى تأتى تلقائيا بغير مجهود بشرط إتمام تطهير العقل الذى يستقبلها وتحريره حتى لا يحدث توقف بسبب أفكارنا الذاتية الجامدة . . فان مواردنا فى الواقع غير محدودة لأنها موجودة دائما فى عقل الله ، وبها نواجه الضغوط الفجائية التى ينسبها البعض للقدر أو الحظ وهى سبيلنا إلى النجاح إذا فتحنا باب العقل لتقبل فيض الافكار الجميلة النابعة عن العقل الالهى .

وذلك لأن الفكر الالهى هو الموجّه الدائم الحضور لأن أصل كل ما فى الكون قائم فيه . . وهو ينساب عن طريق الافكار التى تصل منه الينا وهو العامل الأول الفعال فى التشكيل والحركة الدائبة وهى التى تؤثر فى الإنسان كيانا وصحة ومصيرا لأن كل ما يظهر علينا إنما هو تعبير لما فى تفكيرنا يتجه نحو التنفيذ . . وللعقل إذاً هذان الجانبان : الكيان والظهور ، المنظور واللامنظور ، لأن للفكرة إمكانية التحقق بالتجسيد ويستطيع الاختبار أن يتأمل جانبيها الظاهر فى الخارج والخفى فى الداخل على السواء . إن تفكيرك فى الحالة المثالية التى فى ذهنك هو فى الحقيقة التعبير عنها الذى يقود إلى تنفيذها فى عالم الواقع أو الامكان وهذا هو الجانب الخافى الذى يدير الحياة بأسرها إذ لا يمكن لإنسان ما

أن يقف جامدا هنا ، إنه لابد أن يتأثر بالافكار التى تتقابل معه أو توجه اليه ...

هذا يختلف تماما عن حالة « الجمود الفكرى » الذى ينحصر ويتجمد فى أفكار معينة - إنها التراث المترسب وهو الذى يجعل صاحبه يأخذ قيمة تافهة ويضعها فى مركز أول وقد يأخذ قيمة عظيمة ويضعها فى مركز أخير . . ومن هنا لابد من حدوث اهتزازات فكرية عميقة لكسر الجمود وهزه لكى يتفتح الذهن لأنه لو بقى التفكير جامداً فقد يمضى العمر كله بغير تغيير ولا إنفتاح ... ولذلك فان النجاح من كل وجه يتوقف على نوع الافكار التى تكون لدى كل واحد منا ...

ولذلك فاننا فى حياتنا العقلية يمكننا أن نحتفظ بالدقة ونقرر خط السير الذى سنختاره كما يمكننا أن نجذب الينا التأثير والمعونة من أفكار أعظم وأنبل وأفضل من عاشوا على الارض أيا كان زمانهم ومكانهم - وتأثير كهذا ليس فى مجرد المراقبة بل فى التداخل والتنفيذ لكل فكرة نتأكد من صلاحها لتحقيق قيمتها المحسوسة . . .

إن قانون الجاذبية يعمل فى الكون فى كل اتجاه فيجذب إلى حيث تكون الرغبة ، ويتجه الفكر ويمكنك التحكم فى ذلك بل إنه مقياس لقدرتك .

وليس الايمان سوى إطلاق القوى الفكرية لتحقيق هذه الرغبات وإبرازها من العالم الروحى إلى المادى بالتمسك بها بثبات وجعلها قوة

جاذبة لا تقاوم فانه بنسبة إطلاقها تكون نتائجها . . مثل هذا الايمان يستطيع أن يغير الافكار الخاطئة ويصححها ويستخدم ذلك فى تكامل الشخصية وكرامتها .

إن أفكارنا وتصوراتنا هى الحدود الحقيقية لإمكانياتنا وهذه قاعدة عامة نقيم منها حواجزنا إذ لا نجاح أو تقدم لأحد أبعد مما لديه هنا وإنما تكون نسبة ذلك بمقدار ما لدى كل منا من أفكار وتصورات فى أى أمر مهما كان .

* * *

وحرية الفكر أساس الاختلاف العقائدى كذلك ، وهو اختلاف ليس بالهين ، وما كان بالإمكان أن يظهر لولا الاستناد فيه إلى حرية الفكر على أساس مبدأ الاقناع والاقتناع .

وقد أثبت التاريخ بأن كبت الافكار أشد خطراً من إطلاقها ، وبأنه ليس فى الإمكان تقييد حرية الفكر وهى الينبوع الأصيل لكل ما وصل اليه الجنس البشرى من أعمال عظيمة ـ والواقع ينبئنا أن كبت حرية الفكر يكلفنا من الثمن ومن التعرض للاخطار أكثر بكثير مما تكلفنا المخاطرة باطلاق هذه الحرية ، سواء أكانت هذه المخاطرة حقيقة أو خيالا . . . قال « ستوارت ميل » : « إن الشر الذى يتميز به كبت حرية الفكر هو كونه سرقة وحرمانا للبشرية جمعاء بكافة أجيالها وللناس الذين يخافون الرأى المكبوت أكثر مما هو للذين يتفقون معه لأن هذا الرأى المكبوت إن ثبت صوابه يكون قد حرم الناس فرصة

استبدال باطلهم بالحق والصدق ، وإن ثبت خطؤه فانهم سيحرمون من نعمة لا تقل عن سابقتها وهى أن فكرتهم عن الصدق تصبح أكثر صفاء وإحساسهم به سيصبح أكثر قوة وحيوية نتيجة لاصطدامه بالباطل » .

لقد كانت الحجة التقليدية منذ بدء التاريخ لكبت الأفكار هو الادعاء ببطلانها وضررها فى أى مجال دينيا كان أو علميا . . مع أن الآراء التى لا تلقى ترحيبا عاما هى بعينها التى نحن بحاجة إلى سماعها . فنحن لا نتعلم شيئا جديداً بالاستماع إلى الآراء التى كنا نوافق عليها من قبل ، ولكننا بحاجة إلى سماع الافكار التى ربما اختلفنا معها . وكما قال ميل : إننا فى بعض الاحيان بعد مزيد من البحث والتفكير نجد أن للفكرة الجديدة وزنها واعتبارها فإن لم نصل إلى هذه النتيجة فاننا نكون قد ازددنا فهما لآرائنا بموازنتها بآراء الغير المختلفة » .

والواقع أن الصلة وثيقة بين الحرية والتفكير حتى يعتبر العلم فى كافة مجالاته مفتاح كل حرية ـ فليس الفعل الحر هو ذلك التصرف الأعمى الذى لا يصدر عن فهم وتعقل أو تقدير للأمور بل هو الصادر عن وعى مستبصر يفهم صاحبه قوانين الأشياء ويكيف تصرفاتها مع الضرورات الخارجية . . وليس من شك فى أن حرية الإنسان قد تزايدت بتزايد معارفه العلمية وقدراته الفنية ، فأصبحنا نراه اليوم يحيل « العوائق » نفسها إلى « وسائط » بفضل الطريقة المنهجية التى بلغتها الحرية الحقيقية والتى أمكن بها أن نسيطر على أنفسنا وأن نتحكم فى العالم الخارجى الأمر الذى حقق السيادة الإنسانية بمعرفة قوانين الطبيعة من أجل استغلالها لتحقيق هذه الغاية النبيلة .

الفصل الثانى

حرّية التعبير

« وكانوا يتكلمون بكلام الله بمجاهرة »(أ ع ٤ : ٣١)

لا سبيل لتكوين الشخصية الانسانية وصيرورتها بالنسبة لكل فرد إلى ما يمكن أن تصير إليه حتى تتمكن من مواجهة الحقيقة الواقعة وتكتسب بعد النظر الشخصى والفهم الاجتماعى المتبادل إلا بشغل الانسان نفسه بعمل مفيد للتعبير عن كيانه ولا سبيل إلى ذلك إلا فى ثلاثة ميادين تتفاعل معا لانجاز ذلك التشكيل المعنى وهى على التوالى أولا التعبير اللفظى وثانياً التعبير العاطفى وثالثا التعبير اليدوى ، وهذه ثلاثة ميادين أساسية للاتصال والتعاون بين البشر وهى تمثل ميدان البحث والتحدث أى الخطابة والكتابة فى المجـــال الأول ، ثم التعبير بحركات الجسم والتمثيل الدرامى والتصوير فى المجال الثانى وأخيراً التعبير بالاختراع والفن الآلى — الميكانيكى والسياسى والاجتماعى فى المجال الثالث .

ولذلك جاء التعديل الأول للدستور الأمريكى يعلن عن حرية التعبير دون شرط أو قيد بقوله : « ليس من حق الكونجرس إصدار

قانون يحد من حرية الكلمة أو الصحافة ، وذلك لأن قوة الكلمة المنطوقة تظهر فى كونها تحمل انعكاس الفكر وقوة التوجيه الخاص ...

ولقد جاء دستورنا الحالى فقرر ذلك فى المادتين ٤٧ و ٤٨ بقوله: « حرية الرأى مكفولة ، ولكل إنسان الحق فى التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو بالكتابة أو التصوير أو غير ذلك من وسائل التعبير...وكذلك حرية الصحافة والطباعة والنشر ووسائل الاعلام ، بما فى ذلك النقد الذاتى والنقد البناء ... »

ويذكر التاريخ عن « اخناتون » أنه كان فى زمانه ممن ساهموا بقسط وافر فى اطلاق حرية الكلمة والتعبير المكتوب والمرسوم والمنقوش فكان فى طليعة الصف الأول الذى لمع أصحابه حتى الخلود ومهدوا بذلك لظهور الفن التأثيرى المعاصر الذى يستخدم التصوير التجريدى للتعبير عن معنويات خلفية رائعة حتى أصبح فنا متخصصا يحمل متعة عظيمة قد امتدت إلى جوانب رائعة من الحياة الواقعة خلال مختلف العصور .

وهكذا ربطت الطبيعة برباط وثيق بين التعبير عن الحقيقة باعتبارها قوام السعادة وبين تحقيقها كأسمى فضيلة.وهذا يعنى أن الجهود المستهدفة للكمال الانسانى تستمد العون من بعضها البعض .. حتى أصبحت حماية الفرد وحريته الهدف الأقصى للقانون !

* *

وحرية التعبير هنا حق ذو شعبتين : فهى حق الفرد فى أن يتكلم

ويكتب ويصور ، وهى أيضا حق الفرد فى أن يسمع ويقرأ ويرى ويعلم ، إنها طريقة اتصال الأفكار حيث تكون اللغة ليست مجرد أداة وإنما هى الحديث الذى يتحكم فى أعلى امكانيات الانسان — فاننا نحن البشر من هذا الوجه حوار ووجودنا يقوم باللغة وعليها أى بالحوار وهو يفترض إمكانية السماع والانصات بعضنا لبعض وما نتحد عليه يصبح شيئا ثابتا وباقيا ، ولأجل ذلك يتحتم أن نتبادل الحديث بعضنا مع البعض ، بحيث لا يجب التحكم فى الأفكار أو المعتقدات أو الأذواق وهذه تحيط بسائر وسائل الإعلام وتشملها فمهما يكن من هدفها الظاهر فى التسلية فانها بلا شك تعبر فى نفس الوقت عن أفكار صانعيها الذين يتخذ كل منهم طريقته الخاصة فى إيصالها إلينا .. لهذا تعتبر هذه الوسائل أصواتا ناطقة كل صوت منها ينادى بفكرة معينة وقد تبدو هذه الأفكار غير مستساغة لدى جميع الناس فى وقت واحد وذلك لأن كل فريق منهم يرى غير ما يراه الفريق الآخر . على أن حرية التعبير هى وسيلة الاقناع الوحيدة بالأفكار الصالحة وتمييزها فى هذا المجال الحيوى !

ومن هنا كانت حرية البحث ضرورة مفروضة يساندها النقد الذاتى الحر والنقد البناء لذلك فان الدستور قد أباحهما فى حدود القانون .. فاذا ما أقدم أى شخص على تشويه سمعة شخص آخر بنشر ما يمس كرامته وشرفه ، فمن الطبيعى أن تكون للمتضرر الفرصة فى الحصول على تعويض لما أصابه من أضرار وذلك عن طريق إقامة الدعوى التى تسمى « القذف أو التشهير » ولا يعتبر ذلك مانعا لحرية التعبير أو تحريما لها بل هو « صمام الأمن » الذى يمنع إساءة استخدامها ، فى المسائل

العامة التى تهم الجمهور لا يمكن الحد من حرية التعبير عن الأفكار والمعتقدات لمجرد أن يقرر فرد ما أنها أفكار باطلة أو معتقدات بالية ، وبذلك تستمر حرية مناقشه المسائل العامة على أوسع نطاق ممكن تحت رقابة القانون !

* * *

وواضح أنه لن تكون لحرية الكلام قيمة إذا عوقب شخص لمجرد قيامه بعرض آرائه أو حرم عليه الانتماء إلى جماعة يريد أن يجد فيها من يشاركه رأيه أو يناقشه إياه أو يزيد فيه قوة — نخرج من هذا أن حرية الكلام حق أساسى لا يجوز معه التحكم فيما يكتبه الفرد أو يقرأه لأن ذلك كافكاره تماما لا شأن لأحد فيه فإن حق الإنسان فى خصوصياته وعلى رأسها آراؤه الشخصية ووسائل تعبيره إنما يشمل كل ما يقرأ من كتب أو مجلات وكل ما ينمى من صداقات وكل ما ينمى إليه من جماعات .

على أن « حرية التعبير » هذه إنما تستلزم وعياً تاماً بإنتقاء الألفاظ والعبارات بغاية الدقة حتى نأمن من التخبط والتناقض الأمر الذى يمنعنا من الوصول إلى حكم متكامل فى هذا الشأن .

وتلعب « حرية التعبير » دوراً خطيراً فى الحضارة الإنسانية بمجابهة مشكلات الوجود الإنسانى التى خلقتها الفلسفات المعاصرة والتى تبرز فى الميل إلى الفوضى والعبث واللامعقول وهو ما يفسر نزعات التمرد

والانحراف لدى اللامنتمين والهيبيين وغيرهم ممن يتخذ من « الحرية » إسماً بل مظهراً ادعائياً يطربون له مع أنه يقف فى طريق تحررهم الفعلى .

أما فى المجال الدينى فان الإنسان المتكامل الحرية هو الذى يحيا فى ظل كنيسة حرة يتبادل فيها الناس الرأى الحر والحوار المنطلق وهى لذلك الكنيسة المتجددة على مر الزمن إذ هى أقوى من الموت والفناء ..! وهذا يضفى على الرسالة الدينية حريتها القدسية دون أن تتصادم مع حقائق الحياة مهما حاولت الرجعية أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة تقدمه . . ومن ثم فان حرية كل فرد فى التعبير وفى قيادة التطور والبحث المستمر عن الحقيقة للكشف عنها وتقديمها لذاتها لهى من الحقوق الأساسية التى لا تقبل المناقشة .

ولذلك نصت وثيقة الحقوق الأمريكية فى إحدى موادها العشرة على أنه لايجوز للكونجرس أن يمنع أى شخص من عقد أى اجتماع سلمى مع أشخاص آخرين لمناقشة أى موضوع يريدونه ، وقد نصت المادة ٥٤ من الدستور الحالى على أن « المواطنين حق الاجتماع الخاص فى هدوء غير حاملين سلاحاً ودون حاجة إلى إخطار سابق ، ولا يجوز لرجال الأمن حضور اجتماعاتهم الخاصة ، ولا شك أن هذا أسمى قرار دستورى فى العالم وذلك لأننا مسئولون ليس فقط عن حق الله فى حياتنا ، بل عن احترام هذا الحق عينه فى حياة الآخرين أيضاً إذ أن ذلك داخل فى نطاق المحاسبة التى سيقدمها كل واحد عن نفسه لله ! !

الفصل الثالث

حرّية الضمير

« ضميرى شاهد لى بالروح القدس » (رو ٩ : ١)

لقد لعب الضمير أدواراً هامة على مسرح التاريخ فظهر فى الدساتير والمواثيق الدولية التى كفلت الحريات العامة وجعلتها حقوقاً لا سلطان عليها أبداً لغير العقل والضمير .. يتساوى فيها الجميع بلا تمييز فيما بينهم على الإطلاق .. ولهذا السبب اعترف القانون بالإنسان كانسان فمنع التفرقة فى المعاملة بأنواعها فلم يجعل للطائفية أو الطبقية أى اعتبار مقرراً كذلك حق العبادة وفقاً لإملاء الضمير !

«هذا الشعور الخلقى» — الضمير — هو بعينه الشعور بالحياة، وقد أضاء جوانبه نور العقل، ولذلك قيل عنه : « إذا كان ثمة شيء أعظم وأروع من السماء فذلك هو الضمير ! »

وقد أجمع الرأى على تعريفه بأنه « حاسة أدبية تكشف للإنسان الصواب والخطأ وهو استعداد فطرى به يستطيع الإنسان أن يدرك الخبيث والطيب فى الأقوال والأفعال والأفكار لتمييزها واستحسان الحسن واستقباح القبيح منها — وحكمه يؤثر على صاحبه فيمنحه الارتياح أو يشتكى ضده فيجعله فى عذاب مقيم ... إنه الوازع الذى

أقامه الله فى الإنسان ليراجع به سلطة إرادته وما تقرر ، فله كسيد على نفسه أن يتقبل الصلاح دائماً ويحرص عليه ويتنازل به أيضا عن الشر فيتجنبه ، فهو الذى يدفع النفس إلى فعل الخير ويلومها عند الأنحراف عنه ولذلك فقد وصف بأنه «شعور الإنسان بنفسه من حيث صلته بالله لأجل الاحتفاظ بإنسانيته» . وذلك وفقاً لمعناه اللغوى الذى يعنى «الارتباط بمعلوم» « CONSCIENCE » وهذا المعنى يحدد عمله فى أمر بمدى ماهو معلوم عنه فى نفس صاحبه ، ومن ثم فانه قد لا يقوم بدوره كما ينبغى إذا لم تكتمل معلوماته فيما يختص بالأمور التى يتعامل معها ، ولذلك لايمكن الاعتماد عليه بوجه مطلق ... ورغم أنه يعمل كجهاز استقبال لصوت الله فى نفس الإنسان إلا أنه بالإمكان إسكاته أو تحويله ، ومع أنه قد يعطى إشارات المرور للسير أو التوقف ولكننا قد نهملها أو نتعداها . ومن هنا ظهر اختلاف الضمائر وتناقضها وتعدد صورها واختلاط نداءاتها فى الفرد الواحد ، وهذا فى حد ذاته يحول دون اعتبار الضمير محكمة عادلة تماما وفى سائر الأحوال أو قاضيا نزيها منصفاً معصوماً من الخطأ ومجرداً من الهوى !! ومع ذلك فان أحكامه قطعية دون حاجة إلى أسباب وهى لذلك نهائية لا تتبدل ولا تنسخ أو أو تبطل ...!!

«وحرية الضمير» لا تعنى فى الواقع حق الفرد فى خصوصياته أى فى أن يترك وشأنه فحسب وانما تعنى أيضاً أن صاحبه يرفض أن يتأثر بالعواطف والتقاليد كما ويقاوم بلادة إحساسه بسبب المنفعة فان هذه كلها قد تدفع به إلى الخداع النفسى والمحاباة وهما أشر مايسكت

صوت الضمير فى الإنسان . وهذا ما يصل إليه من يريدون الاستسلام للخطيئة والاستمرار فيها دونما إزعاج من الضمير ، وأما الخطأ الآخر وهو عدم ضبط الضمير على صوت الله — وذلك يشبه عدم ضبط الموجه على ما يراد سماعه — فانه فى الحقيقة سبب إدعاء فعلة الشر بأنهم على وفاق مع ضمائرهم فيبرهنون بذلك بأنهم ضبطوها على موجة أخرى تخص مصالحهم وليس على موجة صوت الله . . إن ضميراً كهذا هو ضمير خداع بلا أدنى شك وصاحبه شرير من الدرجة الأولى أكثر من الذى تخدر ضميره ولم يعد يؤنبه ولا يزعجه . . اذ أنه يتجاهل رحمة الله التى أبقت فى الإنسان رغم سقوطه صوت يكلمه بسلطة مطلقة من عالم الأبدية غير المنظور ومع أن الواجب يقضى أن تكون له الكلمة العليا فى كل ظرف وأن نصغى اليه فى كل خطوة إلا أن معظم الناس يتجاهلون هذا الصوت مع أنهم يعلمون بأنه إنما هو صوت الله يجلجل فى باطن نفوسهم . . !

على أننا بمقدار التزامنا بالضمير يزداد صوته ظهوراً ووضوحاً فيقوم بمحاسبة الإنسان بدقة وكشف أسراره والتعامل معها بجـــدية ونشاط وتركيز ... هذا يظهر التزام المسئولية الأدبية التى تنبع من الضمير المتحرر كبداية لحل مشكلة الحياة . فإن التوتر بين ما نملكه وما نريد تحصيله ، بين ما حققناه وما نرجو أن نحققه ، بين ما نحن عليه بالفعل وما نريد أن نكون عليه ... إلخ هذا التوتر هو الذى يجعل من الإنسان موجوداً أخلاقياً يعرف المفاهيم الأخلاقية ، وهذا هو طريق الضمير الصالح الذى لا يمنعنا فقط عن إرتكاب الأعمال الشريرة

بل يدفعنا أيضاً إلى توبيخها ... وبعكس ذلك الضمير الشرير الذى يوسم فيتقسى ثم يموت فيفقد إمكانية قبول التبكيت مما يجعل صاحبه هالكا لا محالة ...

أما الضمير الصالح فهو « الضمير الحر » الذى يقوم على الإعتقاد السليم والتربية الصحيحة فيصيب فى معرفة الحق والواجب فيتصرف بذلك حسناً دون تساهل مع الأخطاء لأنه بالتدريب والضبط الدقيق يصبح مثل هذا الضمير سداً منيعاً ضد الأخطاء فلا تستطيع المرور منه! وبذلك يخلو الضمير من العثرة — وهى قد تكون مقاومته بالعنف أو الهروب منه بالخداع أو بأى محاولة لإسكاته — فيكون له ملء الحرية فى إنذارنا وتحذيرنا دون تدخل منا فى شئونه .

إنه فى صميمه ضرب من الرقابة على نشاطنا العادى التلقائى ، ولذلك فهو محور الارتكاز فى كل بحث أخلاقى — هو الهاتف الباطنى الذى يرد الإنسان إلى نفسه فيأخذ فى فحص نواياه والحكم على دوافعه ووزن أفعاله بميزان الخير والشر . وقد اعتبره علماء التحليل النفسى من أمثال فرويد « الذات العليا » أو المثالية التى تفرض رقابتها على الذات السفلى (أى الغرائز) ، والضمير لذلك ليس إرغاماً باطنياً كالغريزة ولكنه دراية ووعى لشريعة مقدسة عليا تخاطب إرادة الإنسان الواعية لا لكى تفرض عليها مطالبها قسرا ، بل لكى يرغب هو إتباعها طواعية وبدون إكراه ! ! . صحيح إن الضمير كالآمر يفرض مطالبه القطعية على الإرادة ولكن استمرار نشاطه يتوقف على الإرادة فهى التى إما تسمح له أن يؤدى عمله بسلام أو تقف فى طريقه فيضعف ويؤثر عصيانها عليه

بحيث يفقد تدريجياً قدرته على إصدار أوامره القطعية وأخيرا يتذمر تماماً ويصبح صاحبه كما لو كان بلا ضمير ، وذلك بعد فترة من التذبذب بين الطاعة والعصيان والإصغاء للضمير والتحول عنه ..!

* * *

لذلك جاءت شريعة الفضل والكمال التى أعلنها المسيح لتكشف بنورها ما وراء الأعمال الظاهرة فى أعماق الكيان البشرى فتفحص الدوافع المحركة لما يقوم به الإنسان من أعمال وذلك بتسليط ضوئها على عقل الإنسان وإرادته ودوافعه وعليه كله لا مظاهره فقط .

مثل هذا الشمول هو المدى الأقصى لعمل الضمير وهو أوضح وأبسط تعبير عما فى الحياة الانسانية من كرامة وعزة وسجايا نبيلة ومثل عليا ترفع الإنسان إلى أسمى منزلة وتربطه بالأبدية ... ومن ثم نستطيع أن نعرف « الضمير » بأنه معرفة الشريعة الاخلاقية أو الوعى الذى يعرف الانسان بواسطته إرادة الله ... فيكتسب بذلك وعيه لإنسانيته إذ يقوم بسببه الإنسان بتأدية ما هو واجب وذلك فى وقته المطلوب وعلى الوجه الأكمل ، وهنا يستطيع الضمير ليس فقط التعريف بهذا الواجب والحث على أدائه بل أنه بعدئذ يصدر حكمه على ما نؤديه فيخبرنا بالحقيقة من جهة أعمالنا وأقوالنا وأفكارنا ومشاعرنا وينهى بذلك صعوبة التوفيق بين الجانب الأخلاقى والمظهر الدينى الذى يبالغ فيه البعض ممن لا يشددون على الجانب الأخلاقى الأمر الذى يجعل حياتهم إما عقلية جافة أو عاطفية مضطربة ؛ وفى كلا الحالين يجدون أنفسهم بعيدين عن

مقياس الحياة الصحيحة إذ هم غير أوفياء للضمير حال كونهم لا يصغون إليه إلا حينما لا تكون الطاعة أمرا مكدرا أو أمرا يسبب المضايقة . . محاولين أن يعيشوا فى عصيانهم عن طريق منع الضمير به من أداء عمله

هنا تتدرج الحرية فى السمو حيث لا يكون هناك رقيب بعد الله غير الضمير ! إنه عنوان الحرية الكاملة من جميع الوجوه وهى الحالة الأصلية التى خلق عليها الانسان ويبدأ فى استعادتها عند التجديد ، ومتى كان المرء أميناً لنفسه فى قبول الحق الإلهى — وهذه مسئولية شخصية بحتة تقوم على أساس الحكم الأدبى فى الضمير — فان هذه الحرية تمتد فتشمل دائرة الحياة بأسرها ! والضمير يعبر عن نفسه ويقوم بذلك الحكم أحياناً مثل القيام بالعمل أو أثناء ذلك أو بعده . فقبل القيام بالعمل يشجعنا على تنفيذ ذلك العمل الذى نفكر فيه أو ينصحنا بالكف عنه ، وخلال القيام بالعمل يكون صوت الضمير بصورة عامة أضعف وفى هذه الحالة يكون من الصعب أن نسمع صوته لأننا إما أن نكون مشغولين بما نفعله أو نكون تحت تأثير العاطفية مما يجعل صوت الضمير يخمد جزئياً أو كلياً . أما بعد القيام بالعمل ، فان الضمير يتكلم عادة بقوة محبذا العمل ومعبرا عن رضاه بشأنه أو محتجاً عليه ومسبباً فى داخلنا قلقاً وشعوراً بعدم الرضى — وهكذا يلتزم « الضمير » بالواجب وهو لا يرتبط بطبيعته فى ذلك إلا بما هو حق بشرط أن يبقى حساساً محتفظاً بسلطانه محصناً بذلك كل أنواع الآداب والإغراءات .

ومع أن الضمير يخضع لبعض القوانين الضرورية الثابتة إلا أنه

لا يفهم من ذلك أنه ليس أهلا للثقة على الإطلاق لأنه يتجه نحو العمومية أو الكلية فيجعل للواجب صبغة كلية أو طابعاً عاماً — وهنا نجد أن صورة الاحكام الأخلاقية واحدة بخلاف مادتها التي قد تتغير — الصورة هي الشكل والمادة هي المضمون — والضمير من حيث الشكل معصوم ولكنه من جهة المضمون يعتمد على مقدار المعرفة — فان قواعد البشر الأخلاقية واحدة فى كل زمان ومكان .. وذلك لأن الضمير قد تطور سائراً فى طريق الوحدة الأخلاقية ، وخصوصاً وأن المسافات قد أخذت تزول تحت تأثير عوامل التقارب الفكرى والتفاعل الحضارى فى عصر ألغيت فيه تقريباً فروق الزمن والمسافة ! .

وما دامت الإنسانية تسعى جاهدة فى تحقيق مثلها الأعلى ، فيظل الضمير قوة محركة كبرى تدفع البشر دائماً نحو العمل من أجل تحقيق ما يقضى به العقل والحكمة فى هذا الاتجاه .. هذا هو أساس القانون والعرف الاخلاقى العام اللذين يحددان لنا ما يجب أن تكون عليه تصرفاتنا ، فيقدمان لنا مجموعة من القواعد المحددة الاشكال لنصب فيها أفعالنا ...

وليست غاية الاخلاق القصوى سوى المساهمة فى تعجيل التطور ، لضمان تحقيق تكيف الفرد مع بيئته على الوجه الاكمل وذلك يستدعى تأثر ضمائرنا إلى حد كبير بما مر بنا من تجارب وخبرات وأفكار مشتركة .. فلا الضمير بأسره مكتسب ولا التربية تصنع المعجزات ، فهى لا تخلق من العدم وإنما هى تستند بالضرورة على أسس فطرية تبنى عليها العادات وشتى القيم المكتسبة ..

وفضلا عن ذلك فاننا إذا تجاهلنا قيمة الضمير فان نجد عندئذ أى مرشد نستند إليه فى حياتنا العملية ، وحتى حينما نخضع فى سلوكنا للقانون . فان هذا القانون نفسه لا بد أن يقدم أوراق اعتماده للضمير حتى يتخذ فى أعيننا صبغة شرعية . . وما دام النور الذى يضىء حياتنا لا بد من أن ينبعث دائما من باطن نفوسنا ، فسيظل الحال دائماً أن تصدر كل أفعالنا عن ذلك الشعور الخلقى الدفين الذى اصطلحنا على تسميته بالضمير !! ويتميز المسيحى الحقيقى بأن له ضمير حى يشعر دائما بضرورة استشارته ولا يسمح لنفسه بأن تخدع أو يتملكها الخوف فتقدم على أمر يناقضه كما يخضع بالتدريج حياته كلها لضميره الذى استنير بكلمة الله ويكف عن تقسيم الحياة إلى جزأين : مقدس وعالمى ويتقبل أحكامه فى هذا الضوء .

هذا وقد ثار جدل كبير حول مشكلة أصل الضمير وتفسير نشأته : فهناك من يقولون بأن الضمير فطرى ينبع من عواطف خلقية مطلقة ثابتة بينما يقول آخرون إنه مكتسب يتكون من عواطف نسبية متغيرة . أما أصحاب الرأى الأول فإنهم ينظرون اليه من الداخل فيرونه صوتاً سماوياً أو غريزة الهية من ابداع الله فى كيان الإنسان وأننا قد خلقنا مزودين بهذه الملكة الخاصة التى ندرك بها الخير والشر إدراكا حدسيا مباشراً فهو ملكة غريزية بديهية أى أنه لا يسير من قبل إرادتنا بجهد واع من جانبنا . وبالعكس فهو غالبا ما يرفع صوته معارضا لارادتنا وافكارنا وذلك بوجه عام وفى الجميع مما يؤكد بأن الضمير ليس خاصا فى البعض ولا هو متوقف على بيئة دون أخرى ، بل هو قوة فطرية يشارك فيها الناس جميعا

فى كل زمان ومكان بغض النظر عن زيادة فاعليتها بالشريعة المعلنة — هذه النظرية تكاد تجمع عليها الأغلبية ، ويقول فى هذا الشأن ديكارت : « إن المفاهيم الاخلاقية الكبرى ليست سوى معان فطرية نقشها الله فى قلب الإنسان » أما روسو فقد عرف الضمير بقوله : « إنه مبدأ فطرى للعدالة والفضيلة نستند عليه فى حكمنا على افعالنا وافعال غيرنا من الناس بأنها خيرة أو شريرة » فهو إذاً إلزام لنا على الوقوف أمام الله إذهو يكلمنا دون أن نطلب منه ذلك ودون أن تكون لدينا الرغبة فى هذا الأمر ودون أن يستأذننا .

هذا هو رأى المذهب الفطرى ، أما المذهب التجريبى فينظر إلى الضمير من الخارج ويراه مرتبطا بالشعور الخلقى الموجود لدينا ثمرة للتفاعل الذى يتم بين حياتنا والتجربة فيصبح الخير هو ما يلائمنا تجريبيا ، والشر هو ما لا يلائمنا تجريبيا ، فالتجربة وسيلتنا إلى توثيق العلاقة بين الفعل ونتيجته — ويرى بعض هذا المذهب أن الضمير انما هو من اكتساب الفرد كما فى الإنسان البدائى بينما يرى البعض الآخر أنه وليد التربية والبيئة بالنسبة للانسان المتحضر . والذين يقررون عنه هكذا لا يفكرون أنه وراثى وإنما يقولون بأنه إنما يظهر نتيجة الملاءمة البطيئة التى تتم بين الجنس البشرى وظروف معيشته . ولما كانت غاية السلوك الإنسانى هى تحقيق الانسجام بين الفرد وبيئته فإنه يصبح خيراً إذا حقق هذه الغاية وشراً إذا لم يحققها . . !

وقد أدت الأبحاث عن « مقومات الضمير » إلى اكتشاف تكوينه من عدة عناصر هى العقلية والعاطفية والاجتماعية :

أما أصحاب « النزعة العقلية » فيرون أن اعتبار الحالات الوجدانية التي نستشعرها بازاء الخير أو الشر إنما هي صميم الضمير ، وأن الخلط بينه وبين العاطفة بسبب هذه الحالة لدرجة اطلاق اسم « القلب » عليه أمر متطرف ، لأن من المؤكد أن عنصراً عقليا هاما يحتل الصدارة فى مقومات الضمير . لأن المشاعر العاطفية لا بد أن تجىء على أعقاب أحكام عقلية (صريحة أو ضمنية) يصدرها الضمير على افعال اصحابه وافعال غيره من الناس .

فقد يقف الضمير فى طريق اشباع اللذة إذ يصور الاستسلام لها مسايرة لمبدأ السهولة ، وخروجا على حياة الفضيلة ، وانحدارا لمستوى الحيوانية . وعلى الرغم مما فى اللذة من سحر واغراء ، فان احكام الضمير قد تنجح فى اقناعنا بضرورة الانصراف عنها لأن للضمير من القوة والسلطة ما قد يتضاءل بازائه شتى القوى الطبيعية الغريزية . . وإذا تعددت السبل التى يمكن للارادة البشرية أن تنتهجها ، فان الضمير يوازن فيما بينها ويحكم ويحاول تمييز الطيب منها والفاسد . وبذلك يتيح للتفكير الاخلاقى فرصة توجيه الإرادة بما يكفل لها النظام والتوازن . وإذن فان للافكار الخلقية دوراً هاماً فى صميم « الضمير » ذلك الشعور الخلقى لأنه لا أخلاق بدون توجيه عقلى ، وبصيرة نافذة ، وحكم صائب .. الخ .

ولذلك يطلق أصحاب هذه النزعة على الضمير اسم « العقل العملى » وهو عندهم صورة من صور العقل لأنه يعمل على إقرار النظام فى المجال العملى ، فى حين يعمل العقل النظرى على إقرار النظام فى مجال التجربة والفكرة — وهذا تصور لا يمكن إنكاره لأن للضمير سلطة التشريع

التى تجعله يأمر وينهى بحيث تصدر أفعالنا عن احترامنا للقانون الأخلاقى الباطن فى صميم هذا العقل العملى !

أما أصحاب « النزعة العاطفية » فانهم يغالون فى بيان أهمية العنصر الوجدانى فى الضمير باعتباره حاسة خلقية قائمة بذاتها ، وهم لا يرون أفعاله أحكاما بل مجرد عواطف ، فليس الضمير عندهم عقلا عمليا أو حدسا مباشراً للعقل (والحدس هو ضرب من المعرفه العيانية المباشرة) بل هو وجدان أو حدس قلبى . ونحن نحس بل ونشعر بالضرورة قبل أن نعرف أو نفكر ومن ثم فإن عواطفنا طبيعية فى حين أن افكارنا مكتسبة ، وعلى حين أن كل أفكارنا إنما ترد الينا من الخارج ، نجد أن العواطف التى تقدر تلك الأفكار إنما تنبع من أعماق نفوسنا ، فتعبر عن كون « الضمير » فى باطننا . هذا إلى أن أخلاق العاطفة والقلب والشعور أسمى من أخلاق العقل والحكم والاستدلال . وإذن فان ما يكون جوهر الضمير — عند اصحاب هذه النزعة — إنما هو العنصر الوجدانى أو العاطفى ، وليست العواطف هنا مجرد مظاهر للانانية وليس الإنسان عقلا صرفا لا يخضع لأية عاطفة فى حين أن للوجدان أثراً بعيداً فى تطوير العقل وترقيته : فاننا ما نكاد نؤدى واجبنا حتى يتملكنا شعور بالارتياح والطمأنينة وهذا جزاء نفسى مبنى على ما حققناه من أفعال خيرة بينما يجىء الندم أو الخجل أو تأنيب الضمير (الألم الناشىء عن ارتكاب خطأ خلقى كأن يشعر الإنسان نحو نفسه بالخسة والدناءة لاصطناعه بعض الوسائل غير الشريفة فى اكتساب ثروة ما مثلا .. فيكون ذلك بمثابة العقوبة المبدئية التى نقع تحت طائلها إذا كنا قد ارتكبنا أفعالا آثمة لا يرتضيها الضمير ، ولذلك رأى العاطفيون الأصل فى

الضمير بأنه انعكاس الشعور الخلقي على نفس الإنسان حين يقوم بفحص حالاته النفسية ووزن أفعاله الخلقية !

بيد أنه لا يمكن التسليم كلية بهذا الرأى ، لأننا كثيراً ما نحكم على فعل ما بأنه حسن أو قبيح قبل أن نشعر نحوه بأية عاطفة . والواقع أن التأثر الوجدانى إنما يكون نتيجة الحكم لا سببه ، فنحن نقبل على ما اقتنعنا أنه خير وننفر مما اتضح لنا أنه شر ، دون أن يكون « الخير » هو بالضرورة ما يلائم شعورنا ويلذ له ، « والشر » بالضرورة ما ينافر احساسنا ويؤلمه. وكثيراً ما يعمل الإنسان جاهداً فى سبيل التحرر من شعوره والتغلب على عواطفه ، لكى يقدر فى هدوء وروية قيمة الأفعال الخلقية تقديراً صحيحاً ... أما بالنسبة لأعمال الغير ، فان الضمير يستشعر ازاءها إما تقديرا واحتراماً واعجاباً أو ازدراء واحتقارا ورثاء ، ومعنى ذلك أننا لا نحكم على القيم الأخلاقية استناداً إلى العقل وحده ؛ وإنما نحكم عليها بالاستناد إلى العقل والعاطفة معاً .

أما اصحاب « النزعة الاجتماعية » فقد ردوا الضمير بأسره إلى هذا العنصر وحده دون سواه فاعتبروه انعكاسا لعادات الجماعة فى سلوك الفرد ، ويرى علماء الاجتماع أن ما اصطلحنا على تسميته باسم «الضمير» لا يخرج عن كونه مجموعة من العناصر الاجتماعية المستمدة من صميم البيئة ، فليس الشعور الخلقى الموجود لدى الفرد سوى مجرد صدى يتردد فى أعماق نفسه لأوامر الفعل الجماعى ونواهيه ومعاييره وقيمه ... الخ بحيث أن أى خروج عن ذلك يقابل بالاستنكار والاستهجان من الجميع بوجه عام وذلك لأن كل مخالفة للقواعد الأخلاقية لابد كما يقول دوركايم

من أن تستثير « الضمير الجماعى » الذى يخضع له فى العادة كل ضمير فردى ، لأنه بطبيعة الحال يعلو على الفرد وإلا لما كان له كل هذا الالزام وتلك السلطة ، وبالتالى لما رضخ له الفرد فى سلوكه !

ومع أنه قد حدث اختلاف فى تحديد قيمة هذا العامل فى تشكيل الضمير ، إلا أن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن أحكامنا ومشاعرنا الأخلاقية تتأثر فى جانب كبير منها « بالتفكير الجماعى » السائد فى بيئتنا وهو الذى اصطلح على تسميته « بالضمير الجماعى » الذى نستجيب له أحيانا دون اكتفاء بضميرنا الفردى وحده وقد تظل أفعالنا مطوية أو خفية فاننا نتصور فى عقولنا ماذا عسى أن تكون استجابة المجتمع لها لو أنها أصبحت علنية مكشوفة . . ! ومن هنا لم تكن أحكام الأفراد بالضرورة أحكاما شخصية بحتة ، إذ هى كثيرا ما تكون صدى لبيئتهم ومعنى ذلك كله أن الضمير ظاهرة خلقية يستجيب لها الانسان ليس بعقله ووجدانه فحسب ، بل يستجيب لها أيضا بتراثه الاجتماعى وبيئته الحضارية . . بحيث أننا لو عرفنا حاجات المجتمع وآدابه العامه ومثله العليا لاستطعنا أن نفهم أحكام الضمير الفردى فى ضوء البيئة التى يعيش فيها الفرد والتى تجمع القوانين والجزاءات ، ونحن نعلم أن ممارسة العقود بين الناس ووجود الشرائع وقوانين الحقوق المدنية والجنائية والعقوبات كل هذا يفترض أن الانسان مسئول وهو رب أفعاله — ذلك لأن قوانين المجتمع قائمة على الإيمان بالحرية والاعتقاد بالمسئولية .

ومن ثم فإن أصحاب هذه النزعة محقون فيما يقررونه من أن الفرد

يستمد من بيئته الاجتماعية فهمه للحق والواجب، وحكمه على أفعاله وأفعال غيره إما بالاستحسان أو بالاستهجان. ولكننا نلاحظ أن الضمير الفردى قد يصطدم بإرادة المجتمع، إذ قد يتمرد على بعض القيم الجماعية خصوصا إذا كانت معايير الجماعة عتيقة بالية أو هزيلة مريضة فتكون طاعتها متنافية مع المثل العليا الصحيحة (وهذا ما ظهر فى رائد الاصلاح الانجيلى «لوثر» الذى قرر ضرورة التقاء الفرد مع إرادة الله وجها لوجه عن طريق «الضمير الخاص» فتحرر من السلطان التقليدى المفروض. حين قرر عند محاكمته ارتباط ضميره بكلمة الله وبأنه لذلك لا يستطيع أن ينكر شيئا مما قاله معلنا أنه من الخطر بل من غير المأمون أن يتصرف ضد ضميره) فادعاء أصحاب هذه النزعة بأن كل ما يطلبه المجتمع من الفرد لابد أن يكون حسنا، كثيرا ما يكون بعيداً عن الصواب، فان ما يراه البعض خيرا قد يراه غيرهم شراً، وما يقبله ضمير شعب ما قد يرفضه ضمير شعب آخر وهلم جرا ـ ولذلك فان الرأى الذائع بين الناس لا يكون حقا دائما لمجرد أن عددا كبيرا من الأفراد يؤمنون به إذ ليس ما يمنع أن تكون تلك القاعدة فاسدة حتى ولو كانت مبدأ عاما تعتنقه الجماعة بأسرها (فإن المورمون مثلا يعتقدون بتبادل الزوجات ولا تؤنبهم ضمائرهم على ذلك، كما أن الكاثوليك يفرضون سيادة الكنيسة المطلقة على الضمير الفردى مما يفقده الاحساس بمسئولية نفسه الشخصية)

وإذن فان القيم الاخلاقية ليست من صنع الجماعة وحدها، بل هى تستند أيضا إلى حياة الفرد العقلية والوجدانية: فهى ليست مجرد قوة تأتى إلينا من الخارج وإنما هى ملكة تنبع من صميم شعورنا بالحياة وتستند

إلى طبيعة تكويننا النفسي وهي تدفعنا إلى تنظيم حياتنا وتحقيق التكامل فيها وهكذا يفرض الضمير علينا التزامات معينة يضطرنا إلى أن نتحمل مسئولية أفعالنا أمام أنفسنا . . وإذن فلولا الحرية لسقط التكليف ، وبالتالي لاستحال العقاب أو الثواب .

على أن حرية الضمير مع كونها تاج الحريات كلها إذ أنها بأسرها تتجمع فيه إلا أنه قد يستبد بها جرم الخطية ودنسها إذا تحول الجهل إلى عصيان وتحول هذا إلى ذنب على الضمير فإنه يسلب من النفس كل حرية ، على أن الضمير المحرر هنا هو « الضمير الطاهر » أى المطهر بدم المسيح وهو الذي يعيش حينئذ في جو من السلام ، وفي هذا السلام يجد الضمير حريته .

لذلك يصرف المسيحي وقتا طويلا في الصلاة والتأمل ، ويصمم أن يتيح لضميره الجو الهادىء الذي يلزمه لكي يحدثه بإخلاص فيقوم بامتحان النفس استمراريا ومن كافة الوجوه !

ويصف جون وسلي ذلك بقوله : « عند ما يكون ضميرى خال من العثره فإني أتمتع بإحساس دائم بتبريرى ، الامر الذي يفيض منه سلاماً ومحبة وسعاده لا ينطق بها . »

هذا هو عمل الروح القدس الاكمل والاعمق في الضمير وهو يجعل صاحبه يحب الحق ويسر به معترفاً بسموه وأفضليته فيجد الآن بعد أن تحرر الضمير أمراً سهلا أن يعمل الحق وان يجده صعباً لأنه يحب ما يأمره به الله . هنا نجد سر الحرية واللذة في خدمة الرب وطاعته !

الفصل الرابع

حرّية الإرادة

« الارادة حاضرة عندى » (رو ٧ : ١٨)

لقد أودع الله فى الانسان « الارادة الحرة » ، وهى التى أمتحنت بالوصية التى لم يكن القصد منها الاذلال بل إعلان الحرية وهذا هو مفهومها الصحيح ، وقولنا بالارادة هنا إنما يقصد به حرية الاختيار إذ ليس هناك فعل بلا إرادة . والحرية فى ينبوعها الحقيقى ليست شيئاً آخر غير الشعور نفسه بفعلنا أو بقدرتنا على الفعل ، وعلى هذا فالشعور بالوجود الشخصى لا يتم إلا بممارسة النفس لقدرتها الخاصة وهى قدرة طبيعية - لأن حرية الانسان حرية تامة فهو قادر بارادته الحرة على القبول أو الرفض - لأنه لما كانت الارادة تقتضى الحرية فالشعور بالذات يقتضى الشعور بالحرية ومن هنا فان الذات والارادة والحرية معان متشابكة يؤيد بعضها بعضا . ولذلك فبالارادة يثبت للذات وجودها وذلك بتحقيق ما يمكن ليصبح على هيئة وجود بالفعل فتعين الذات نفسها إنما يكون بتحقيق إمكانياتها فتختار من بين الممكن أحد أوجهه وتتعلق به ثم تحققه بواسطة الارادة ، وبدونها تسلب من الانسان حريته ويكون فى موقف العاجز لأن الحرية لا يقوم الشعور بها إلا فى حال الفعل .

ولذلك قال ديكارت : « أنا أفكر أنا أريد أنا أفعل إذن فأنا جوهر موجود » فماذا تكون الإرادة بالنسبة لهذا الجوهر ؟ إنها حدوث التصرف فى ظرف معين نحو غاية معينة ، ليس بنزعة عمياء ولا بقوة إرغامية بل بحث الرغبة تحت سيطرة الوجدان : فيقوم الإنسان بما يفعل وهو عارف أنه يفعل وماذا يفعل أيضاً .

وتعتبر « الإرادة الحرة » أغلى ملكة فى البشر إذ هى « عجلة القيادة » فى عربة حياتنا ، وهى لذلك عنوان سيادة الإنسان على نفسه وعلى ما حوله كذلك لأن بها يرفض ويقبل ويبت فى الأمور فيشعر بالرضى والارتياح كلما حقق هدفا من اهدافه أو سعى لإدراك الحق — وهكذا تخلق الإرادة إلى حد كبير العالم الذى يعيش فيه كل منا .. بما يحتويه من نشاط وفاعلية !

ورغم التواء الارادة فى الإنسان وحصول الضعف لها إلا أنها لم تتلاش ولم تسلب منه فلن يمنعه مانع عن صنع ما يشاء بل لا تستطيع قوة ما أن ترغمه على صنع الخير أو الشر ، بل أن أسمى درجات النعمة لا تجعل الإنسان غير قابل للسقوط إذا تهاون فى أية لحظة لأن الله لا يسلبنا حرية الارادة قط وحتى الذين يؤكدون قضاء الله بكل ما يحدث يعلمون أنه قضاء اختيارى لم يغتصب إرادة خلائقه ولم ينزع حرية الأسباب الثانوية ولا إمكان حدوثها . فلم تقف بذلك قوة الاختيار وتقرير المصير وإلا لما كان هناك معنى لمطالبة الإنسان بعمل شيء ما أو الامتناع عن عمل شيء آخر لو لم يكن له سلطان على إرادته وتأكيد لحريتها فى التصرف ..! والوصية لم تكن لتقدم لمن ليس فى سلطانه امكانية طاعتها ، وما كان يمكن أن يهدد عند مخالفتها بعقوبة كالموت ،

ولذلك فهى ما كانت لتوضع أمام الانسان إلا لأنه حر له أن يطيع وبإرادته أن يقاوم - إذ كيف لا يتحكم الانسان فى نفسه ، وهو الذى كان مالكا على العالم كله ! ؟ فرغم وقوع الانسان فى الغواية إلا أنه بقى حراً له السيادة على نفسه ، وهكذا ترتبط الارادة بقوة التنفيذ ، لأنه ماذا ننتفع إن كنا نريد ما لا نقدر أن نفعله ، أو لا تكون لنا إرادة فيما نقدر أن نفعله ! ؟

قال القديس أغناطيوس : « إن الإنسان حر فى إرادته ، وعليه وحده تقع تبعة عمله » ويشهد فم الذهب لنفس الحقيقة بقوله : « إن أعمال الإنسان أيا كانت ليست إلا نتيجة إرادة حرة ، فنفس الانسان مزدانة بسلطة مطلقة على إرادته وأفكاره ولو كانت ضد الله نفسه - وبها نحن مشرفون بحصولنا عــلى حرية كاملة فى إرادتنا واستقلال تام فى اختيارنا » .

ولولا حرية الارادة لما اعتبر الإنسان مسئولا مسئولية أدبية ومكافا بها لأن الإنسان لا يمكن أن يساق إلى عمل أمر لا رغبة له فيه وكأنه يتممه بفعل مؤثر خارجى قاهر إذ أن كل إنسان يسعى وهو شاعر بحريته مقر باختياره لأن الانسان لا يسير شبرا واحدا بغير إرشاد العقل ، وبدون اختيار الارادة ، وإنما كل واحد يتحرك نحو ما يختاره بحريته التامة . . ولا معنى « للاستقلال الذاتى » الذى ننسبه للارادة البشرية ، ما لم تكن هناك « حرية » يستند إليها ويرتكز عليها . فالانسان كتاج للخليقة المنظورة له حرية الاختيار وحرية العمل . إنه يملك الشعور الأدبى والارادة الحرة . وهذه هى ميزته التى ترفعه وتسمو به وهى كذلك سر بلائه وسقوطه لأنه بسبب حريته هذه يستطيع أن

يخطىء — ولكن هل يخلق الله الانسان بغير إرادة حتى يمنحه العصمة المثالية بذلك . أم يخلقه بإرادة حرة عاقلة مع مافى ذلك من خطر يتهدد كيانه ومصيره ؟ إن العصمة بلا إرادة تصبح ارغاما بسببه يتحول الانسان إلى آلة صماء أو حيوان أعجم . . وأما الارادة رغم أنها تجعله عرضة للسقوط إلا أنها أساس الصلاح الانسانى كله ومعبود الانسانية حتى اننا نرفض استمرار الحياة بدونها إذ هى سبب السعى إلى الكمال شيئا فشيئا من خلال مخاطر الحياة ، وهذا هو أساس المحاسبة فى النهاية ! !

* * *

ومن ثم فإن منبع الشر يكمن فى الحرية والارادة ، فليس هو المادة أو الازدواج بل ما تقرره الارادة من علاقات تتخذ أشكالا مادية . . . فاننا نحيا فى عالم مليء بالضرورات ، ولا بد للحريات من أن تتعامل معها حتى يتحقق مفهومها بمعنى الكلمة فان الانسان وإن كان حرا ولكن ليست حريته هذه إرادة متعسفة تقول للشيء كن فيكون ، بل هى نشاط إيجابى مستمر يسعى من ورائه الانسان إلى تحرير ذاته مستندا فى هذه العملية الشاقة إلى وسائط المادة وإمكانية العقل ... ولذلك فان تعريف الحرية على نحو سلبى كأن يقال أنها انعدام الضرورة لايكفى إذ أنها بالأحرى صدور الأفعال الاختيارية عن إرادة الكائن الحر بروية وتدبر وهذا هو معنى الفعل الحر ، وهى غير الأفعال الاضطرارية التى لا يد لنا فيها كضربات القلب !

يقول اثناسيوس : « ليس البشر عنصرا أساسيا فى طبيعة الأشياء ولكن الناس إذ يستخفون بالأمور الأفضل ويرفضون إدراكها بدأوا

يبحثون عن الأمور الأقرب إليهم التى فضلوها على تلك ، وهكذا يحدث انحدار النفس تدريجيا من الحق إلى الباطل بسبب اساءة استعمالها لحقها فى حرية الاختيار . إذن فالشر يكمن جوهريا فى أختيار الأمور السفلى وتفضيلها على الأمور السامية - ومن ثم فان القول بأن الشر متغلغل فى طبيعة الأشياء وأن له وجودا جوهريا أو أنه مستقر فى المادة هو من الآراء الباطلة .

حقيقة الشر إذاً هو ما ينشأ ويستقر فى الاختيار المعكوس للنفس المظلمة التى تغلق عينيها عن رؤية الله فتفكر فى الشر لذاتها ولكنها وهى تتحرك فيه لا تعرف أنه عدم أو أن الخير وحده هو الموجود لما له من مماثلة فى الله الموجود وأما الشر فهو العدم ولذلك فإنه ينحصر فى الأوهام الباطلة ، وحالة النفس التى تختاره وتجد نفسها فيه إنما هى بطبيعة الحال نتيجة اختلال توازنها .

وأما النفس التى تحسن الاختيار فانها تجد فى الحياة فرصة متكافئة بل ومتلائمة لها وهذا هو أساس الثواب والعقاب : إن كل بشر يبدأ حياته أمام خالقه الأعظم بصفحة بيضاء يخط فيها أعماله باختياره الحر — وهذا هو أساس العمل فى الدنيا والحساب فى الآخرة ! فاننا فى الواقع قبل أن نقدم على تحقيق أى فعل نشعر فى قرارة نفوسنا بأن التصميم الذى سنتخذه متوقف علينا وأن مصيرنا نفسه قد أودع بين أيدينا . ومع أننا كثيراً ما نحاول التنصل من أفعالنا ، خصوصا حينما نكون هدفاً لانتقاد أو اتهام فنتعلل بأننا لم نكن منتبهين أو ندعى وقوعنا تحت تأثير هوى عنيف أو عاطفة غلابة ، ولكننا فى العادة نتقبل مديح الناس

حينما ينسبون إلينا الفضل فيما حققناه من أعمال دون أن يخطر على بالنا أن نرجع هذا الفضل إلى قوى غريبة عنا ، أو أن ننسبه إلى عوامل خارجية وقعنا تحت تأثيرها عند الفعل . وأما فيما يتعلق بالآخرين فإننا قد اعتدنا فى معظم الأحوال أن ننسب إليهم أفعالهم — بما فيها من خير وشر — وبالتالى نثيبهم أو نعاقبهم دون أن يخطر على بالنا أنهم قد يكونون مجرد ألاعيب فى أيدى قوى غريبة غاشمة .. والصلة وثيقة بين الحياة الخلقية والشعور بالحرية ، فانه لو لم يكن فى وسعنا أن نختار الشر أو الخير بمحض إرادتنا لما كان للالزام الخلقى أى معنى .. فانه لن يكون ذا معنى اللهم إلا إذا كان فى وسعى أن أطيعه أو أعصاه وفى هذه الحالة الأخيرة تصبح إرادتى عبدة للشهوة أو الخوف وبذلك تتحول إلى ضحية للرغبات الشريرة . . ومن الملاحظ تبعاً لذلك إمكانية أن تكون هناك معرفة دون تنفيذ فمن الممكن أن يرى الإنسان الصواب ويعرفه ومع ذلك يمتنع عن عمله بسبب خوفه من الألم أو العار — كما أنه قد يرى الشر ويعرف أن الواجب يقضى عليه بالابتعاد عنه ومع ذلك فقد يستسلم له بسبب اللذة الوقتيه المرتبطة به ... !

وفى أحوال عكسية من الممكن أن نتمم أعمالا بمجهود إرادتنا ولكن دون مصاحبة ميولنا لها .. ولا يخفى أن أعظم عنصر فى الوجدان هو الشعور باللذة والألم ، فالشهوة ترمى إلى اللذة المباشرة والرغبة ترمى إلى اللذة البعيدة — فى الرغبة الميل للفعل ولكنها لا تتكفل به بل تقف عند حد الميل وتترك الأمر للإرادة تأمر بالفعل أو لا تأمر به . فقد ترغب فى شىء وتشتهيه ولكنك قد لا تريد أن تقدم عليه — فمثلا قد ترغب فى معروف من صديق لك ولكنك لا تريد أن تسأله إياه — وبالعكس قد تريد من غير أن ترغب ، فقد تريد أن تسافر للعلم ومع

ذلك لا ترغب فى السفر ، ومن ذلك نرى أن الرغبة مجردة عن الفعل وعن الإرادة التى هى الأمر بالعمل أو الكف عنه . ولذلك وجد أن للإرادة طرفين هما :

النيـة والتصميم :

النية تمثل الحب وهو أعظم شعور فينا يستغرق معظم إحساساتنا ويدمجها معاً فيعظم العاطفة تعظيما يرتفع بها إلى أسمى درجات الخيال ، فالحب هو مجموع « الأخلاق الجيدة » وهو يصل إلى تعشق المثل الأعلى من الجمال ويكاد يكون أعظم عامل فى تصرفات الانسان إذ إليه يعزى كل مساعيه وأعماله . هنا تكمن النية وهى بدء التنفيذ إذ أنها نقطة بداية كل مشروع فى الحياة ولكنها قد تقف عند حد الرغبة إذا لم يصحبها التصميم على العمل . فقد تنوى ولكنك إن لم تصمم على التنفيذ فلن تتم النية لأن التصميم مرتبط بالمستقبل . فان أردت أمراً ما وفعلته كان معنى ذلك أن التصميم قد اقترن بالإرادة . وأما إذا أردت وسوفت يتعطل الفعل لتوقفه على التصميم . فالارادة النافذة هى التى تقترن بالتصميم بمعنى أن الأخير شىء أعلى من الأول لأنك قد تريد السفر وترى الطقس رديئا فان لم يظهر التصميم فلن يتم السفر . فالإرادة بلا تصميم نية مؤجلة التنفيذ والتصميم إرادة منفذة ... !

وهو يظهر عند ما تتنبه الإرادة وتستثار لتثبت وجودها بقبول خط السير المرسوم وحينئذ ندخل فى نطاق الخطة والعمل على تنفيذها دون التوقف عند حد الرغبات ويتم ذلك بتحويل النية إلى تصميم — وهذا هو طريق التحقيق لما نحلم به ونرغب فيه .. هنا تتم الإيجابية إذ تتحد

الخطوات وبذلك تتحقق الأهداف وتتم الآمال — ولذلك فقد ارتبطت المسئولية بالنضج العقلى أو سلامة العقل وهنا تبدو أهمية « النية » أو القصد كركن هام من أركان المسئولية باعتبارها أول مظاهر الحرية فهى تكشف عن اختيار الفعل بعد أن تدبره العقل وعزمت عليه الإرادة واستقر عليه قرار الفاعل !

ومع هذا كله فقد دأب الناس على أن ينظروا للإرادة على أنها ملكة عجيبة مطوية فى أعماق النفس ومغلفة بالأسرار من كل جانب ، كأن تصميمات الإرادة هى عبارة عن أحكام تعسفية لا سبيل إلى فهمها مطلقا — ولكن وليم جيمس فإنه على العكس يربط بين الإرادة وبين عمليات التدبر أو التروى وسائر مظاهر الحياة الشعورية ويعتقد بأن ماهية الإرادة هى إعداد الذهن لتركيز انتباهه فى فكرة واحدة مع استبعاد غيرها من الأفكار ، وحينما يتحقق ذلك فلا بد من أن يتولد الفعل على الأثر بطريقة تلقائية . وعلى ذلك فإن حرية الإرادة ما هى إلا قدرة الذهن على التحكم فى جهده اللاانتباهى . ومثل هذا الانتباه الإرادى هو الذى يولد الحركة اللازمة بطريقة مباشرة ، فتدفع إلى تحقيق الفعل المراد تحقيقه !

وهكذا تشعرنا الإرادة بالوجود أكثر مما تفعله المعرفة أو الفكر — وذلك لأن أوليات الفكر تظل كامنة دائماً فى عقلك الباطن أو الظاهر ولا تبزغ فى الزمان إلا إذا عملت الإرادة على إبرازها وتوجيهها . ولا بد أن يقع ذلك الفعل فيحدث آثاراً محددة لها بداية ولها أيضاً نهاية !!

ولا شك أن حرية الإرادة تتصف هنا بالاطلاق ولكنها مع ذلك تتدخل بمقدار القدر الذى لدى إدراكنا من الوضوح والتمييز كما أنها تظهر فى ميدان الرغبات إزاء احداث العالم التى يبدو أن الإرادة تستطيع أن تأخذ فيها وتعطى ، أن ترغب فى بعضها وتنفر من البعض الآخر !

إن حصول الإنسان على قدرة الإرادة الحرة ، تلك القدرة التامة التى لا تفترض مراتب أو درجات ، القدرة على القبول أو الرفض ، على التقرير أو الإنكار هو فى حد ذاته حصوله على حقيقة وجوده التى تتجلى فى قدرة كافية فى جوهر النفس تجعلها تقرر لذاتها ، فجوهر الشخصية إذن هو الإرادة والحرية ، والإرادة هى التى تقرر العمل الذى تختاره وتسعى فيه وهو يتم طبقاً لتحركاتها نحوه ، وهى محرك حر داخل الإنسان به يعتبر مخيراً ! ؟

وبما أن الإرادة متسعة المدى بطبيعتها ، فإنها لميزة عظمى أن لنا القدرة على العمل بواسطتها أى العمل بحرية ، وأن نصبح سادة أفعالنا .. وحيث أنه من أركان الحكمة أن يعرف الإنسان كيف ولماذا يجب عليه أن يقدر نفسه أو يحتقرها وهو يفعل ذلك بممارسة حريته والسيطرة على إرادته والحصول بذلك على المدح أو الذم بسببها — وهذه الحرية إذ تهيء لنا السيطرة على أنفسنا فانها معيار تقدير الإنسان لنفسه ، وهذا يرجع إلى تصرفه الحر فى إرادته ونوع استخدامها وأيضا فى الشعور بعزيمة صادقة — والإرادة باختيارها هذا ، هى التى يفترض الإنسان وجودها ، بالضرورة فى كل إنسان آخر [فالآخرون هم مثلنا حائزون على الإرادة الحرة إذ من البين بداهة أن لنا هذه الإرادة وانها قادرة على

القبول أو الرفض كيفما تشاء، ونحن نعرف ذلك بالتجربة بعد أن قام الدليل عليه فهى أمر واقع به نختار مسارنا ونقرر مصيرنا]

هنا تظهر مسئولية الإرادة البشرية فى اتخاذ الموقف الإيجابى باختيارها فهى التى تمكن الإنسان من أن يقرر ويبت فى الأمور — وهذا هو الحل المضمون لكل مشاكل الحياة إذ به يتم التحرر من الظروف غير المرغوب فيها .. وبقدر تجاوبنا ينتهى انتزمت الضاغط الذى يعوق تقدمنا بل ويوقفه لسبب ما قد يصادفنا مما نتصوره معوقا لنا ..

. . .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا كيف أن الارادة لن تكون حرة تماماً وفقا لطبيعتها الاصلية مالم يؤت بها أولا إلى بيئتها المناسبة، وأن عنصر هذه البيئة الذى تجد فيه الارادة حريتها هو محبة الله . أن التعريف الشائع للارادة الذى يقول بأنها « عمل الانسان لما يحب » تعريف ليس ببعيد عن الصواب — فإن الأرواح الممجدة إنما هى حرة وهى تفعل ما تحب ولكن لكونها مقدسة فانها تفعل ما يحبه الله ، وكذلك عندما تظهر النفس المقدسة مشاعرها وسرورها فيما يسر الله فانها تجد حريتها فى فعل ما تحب . ولذلك فان كل ما ينقى رغباتها يحرر إرادتها أيضاً : أن تحرير الارادة إذاً إنما هو الأتيان بها إلى جو المحبة الآلهية . وكما أن العقل يجد حريته فى الحق وكذا الضمير فى السلام هكذا تجد الارادة حريتها فى المحبة ..!

أن أسمى وأكمل حالة أدبية للعقل هى اللذة — ليس عند عمل الصلاح فقط

بل عند التلذذ بذلك العمل . وبالتأكيد نحن مقيدون بفعل ما هو صالح سواء رغبنا فى ذلك أم لم نرغب — والطاعة لأجل الضمير التى تحملنا على التنفيذ ضد ميلنا تستحق كل تقدير وهى مطلوبة منا ، ولكنها مع ذلك لا تزال حالة أدبية أقل بالمقارنة مع تلك التى فيها الميول نفسها تقف فى جانب الصلاح ، لأننا إذ ننظر إلى الطبيعة الحقيقية للأمر فاننا لا نستطيع أن نسميها سوى أنها حالة من العبودية وذلك عندما لا تتفق عواطف الانسان مع عمله ، لأنه حينئذ يخضع للواجب كنير قد وضعته عليه قوة عليا أو أجبره به ناموس ماحق ولو كان ذلك الناموس قد أعلن له خلال ضميره ..

وهكذا نجد فى الحياة المسيحية مرحلتين متداخلتين من الاختبار احداهما تلك التى يدفع اليها الأحساس بالواجب ، وأما الأخرى فهى التى تدفع اليها قوة المحبة . ويمكننا أن نمثل هاتين المرحلتين بدائرتين مركزيتين : الخارجية وهى تمثل الواجب والداخلية وهى تمثل المحبة ، وقد يكتفى البعض بالأولى منهما دون الثانية ، ولكن يستحيل عليك أن تكون فى الثانية ، الداخلية ، دون أن تكون فى الأولى — الخارجية — أيضاً . هكذا إذا كنا نسكن فى المحبة فاننا سنعرف ما معنى فعل الصلاح لأجل ذاته كما ولأجل الميل إليه ، ولكن ليس من الصعب أن ترى أى الحالتين هى حياة الحرية الحقيقية ! فما أكثر الذين يتممون الواجب كطاعة ناموسية تحت تهديد خوف مناسب من عقاب عادل بدون أن يكون ذلك ناشئاً عن مبدأ المحبة ، مع أن المحبة فقط هى التى تجعل الطاعة سهلة حتى وإن كان الايمان هو الذى يجعلها ممكنة .. !

ولكن إن كانت المحبة هى اسمى نوع من الحرية فماذا تكون إذن ؟

وأين نجدها ؟ ومن أين تأتى ؟ وكيف نحصل عليها ونحيا فيها ؟ يرى البعض أنها فطارية فى القلب البشرى وغاية ما فى الأمر أنها انحرفت أو ضغط عليها ، وأن ذلك يتطلب محو أو رفع المواد الأخرى الضاغطة لكى تظهر فى الإنسان بحسب خلقته الأصليه . . وحينئذ تنسكب عليها المحبة الإلهية وتغمرها فتصبح فينا قوة فائقة تشكل مشاعرنا وأهدافنا — هنا فى دائرة المحبة الروحية تتحرر الإرادة وليس هذا مجرد مثال لكنه إختبار ممكن . . فإن الحق والسلام والمحبة حقائق واقعية ليست أقل من العقل والضمير والإرادة . . !

وهكذا باتيان كل جزء من كياننا إلى بيئته الحقة يتم تحريره . وتتحول الحياة بذلك من مجرد الرضوخ للواجب إلى حياه حرية ولذه . فإذا ما تصورنا فى هذا المجال حياه شخص ما رغباته مطهرة جزئياً فقط نجده وإن كان قد عرف السلام مع الله وحققه إلا أنه بسبب نقص الحرية قد تعطل فى هذا السلام فنجد حياته قد ضاع منها الفرح لأنها أصبحت مجاهدات لا تتوقف وخيبات متكرره حتى وإن كان يقال له بأن مثل هذا الصراع من علامات الحياه المسيحية لكنه سوف يتعلم من كلمة الله بأن عليه أن يجاهد الجهاد الحسن وهو الجهاد المفروض الذى تتكون منه « الحرب الروحية » وذلك حتى يتمكن من التمييز ما بين الجهاد والعصيان حيث لا تكون الإرادة خاضعة تماماً وإنما تكون تحت تأثير بعض الرغبات الشريرة . وهنا لا يمكن أن يكون هناك سلام حقيقى أو حرية صحيحة لنفس فى مثل هذه الحالة !

الفصل الخامس

حرّية الرّوح

« حيث روح الرب هناك حرية » (٢ كو ٣ : ١٧)

ليست « الحرية » مجرد حقيقة ضرورية لا يملك الإنسان سوى أن يتصف بها أو يخضع لها ، وإنما هي « عملية روحية » تشير إلى مدى قدرتنا على التحكم فى ذواتنا والسيطرة على ظروفنا ، ولذلك فإننا نلاحظ أن العقل البشرى فى كل عصر قد عمل جاهداً فى سبيل الرقى بالقيم العضوية إلى مستوى القيم الروحية ، فإن رغبة الإنسان نحو اللامتناهى لا يمكن تحقيقها أو الوصول إليها بدون اكتشاف الروحانية وممارستها فما الحياة الروحية سوى تبادل شعورى روحانى بين الفرد والآخر .

فى هذا المجال تتفتح طرق التعبير وتستيقظ الحواس أمام قوى الروح التى تهيمن على كافة شئون الفرد عندما يصبح مطيعاً للروح ومستعداً أن يتبعه بدون مناقشة أو اعتراض حينئذ يرى الطريق أمامه سهلا وإلا فإنه يلاقى الكثير من الصعوبات ويجد رحلته فى الحياة طويلة وشاقة ! .

ولذلك وجب علينا أن نمتثل للروح الأبدى الذى يضع الإنسان الصحيح التدين فى مركز الوجود فيحس بالروح الإلهية فى كل ما تقع عليه عيناه . وذلك لأن الروح هو الأقرب للإنسان والأعم —

إنه عام فى التصرف حر وغير مقيد — ولهذا فهو الأصعب إدراكا والأعمق سراً . . فإن دائرة عمل الروح واسعة جداً لا تقتصر على النبى والرسول والقديس بل تصل إلى الشاعر والفيلسوف والمخترع والمصلح . . إنه عمل لا يقف عند حد الإنارة بل يصل إلى إحداث التغيير الشامل فى حياة البشر . . إنه نوع فريد من الجذب والانخطاف يحمل دائماً بين طياته انتصاراً حقيقياً على كافة أوجه العبودية البشرية وانحطاطها . هذه هى وكالة الروح وهى مستمرة وثورية . إنها صوت الحق فى هذا الوجود بل صوت الخالدين الذين تحقق فيهم بواسطته هـــذا التجدد المنشود مشتهى كل الأجيال والعصور ! .

ولا شك أن هـــذه الحرية التى نحن بصددها هى قمة الحريات الشخصية التى لا تتأثر بضغط أو إغراء : إنها متابعة الإعلان الإلهى وذلك عن طريق الخضوع لنوره وتنفيذه حتى لا تكون معرفته مجرد تخمين أو تخيل أو فرض بعيداً عن الادراك الواقعى ! .

والمسيحية فى واقعها الحقيقى — التاريخى والاختبارى على السواء — ليست سوى اعتقاد بالاعلان الذى جاء من الروح فهو نبع الوحى ومجراه وهو الذى يحرر حامليه وقابليه من قوة العالم والطبيعة والمجتمع والذات . ومثل هذا الانسان يرى بوضوح طرق الحرية وأحكامها الضرورية — ولذلك كان لابد لكل إنسان — نبياً كان أو روحياً — أن يسكن فى عالمه الروحى الخاص حيث ينفرد بالله ويتبادل معه

الحديث ومن هناك نجده يحكم العالم المحيط به بأسره دون أن يدعه يتحكم فيه . . !

ولذلك يقول برادييف : « إن الاعلان يجب أن يفسر على أنه وكالة الروح الالهى على روح الانسان وحريته وشعوره وضميره . . . بواسطته يسمع الانسان صوت الله بعيداً عن الواقع التاريخى لمن يتبعون حرفية الناموس كالفريسيين أو دون تسلط الأنظمة الخالية من الحياة كالمتسلطة على التقليديين ، وبعيداً عن الاكتفاء بالتشريع الأدبى والفن التشكيلى وكل ما يؤدى إلى تطوير الحياة ظاهرياً على حساب الضغط على المحبة التى تشع بحرية الروح فى كل كيان بشرى يقبل الاعلان ويطبقه نصاً وروحاً » .

و « حرية الروح » إذاً إنما هى تحرر من عبودية الطقس والواجب وما درج عليه العرف والمألوف — لأن الحالة الشعورية التى تنبع من التدين الروحانى إنما هى وحدها دون سواها حالة تلك الروح التى تريد نفسها وتحس فى قرارة نفسها بأنها أسمى من كل موجود حسى وتسمى فى الوقت نفسه سعياً حراً نحو حالة مطلقة من النقاء والروحانية . ولكننا يجب أن نعترف هنا بأن كثيرين ممن هم حسب الظاهر فى عصر الروح إنما هم فى الواقع داخلياً تحت الناموس والقيود .

لذلك نادى برادييف بروحانية لا تتقيد بالماضى بل تولى اهتمامها أيضاً بملكوت الله مستقبلا — فأعلن عن ضرورة ظهور عصر جديد تعود فيه الكنيسة إلى الروحانية . . ويذكر فى كتابه « الروح والحقيقة »

وجوب اطلاق الحرية التامة للروح القدس وإعلاناته حتى لا نضع له حدوداً أو حواجز أو عوائق تعطل عمله ، مؤكدا لنا أن ذلك الإطلاق لا يقدم وحيا جديدا — لأن الوحى الأول المكتوب كامل فى ذاته — وإنما هو يفسره ويتوجه ، لأنه ينهى الانفصال الكائن بين الله المنزه والإنسان الخاطىء... ! لأن تمام الوحى المكتوب ووجوب تقديسه من الجميع لا يعنى تقييد الروح بالنص وانحصاره فيه إذ أن ذلك لا يتفق مع جلاله وهو المطلق غير المحدود كسائر ما يتصل بالله سبحانه وتعالى ! ؟

ولذلك فان الروح القدس يخبر الروحيين بأمور آتية ويكشف للمشتاقين أسرار الملكوت ويزيدهم نورا على نور بسير الحوادث ومكنونات الأيام ... فهو مانح الإعلان المتزايد الذى يمنعنا من التقيد أو التعطل أو التباطؤ ، ويحررنا بذلك ويطلق نفوسنا فى الأجواء الروحية العالية التى تنمى الإيجابيه فى الطبيعة البشرية وتحررها من ثقل الخطية وتنهى الصراع القديم بين الروح والجسد بإعطاء الإنسان الروحى السيادة لروحه على جسده وإنارته وتحويله إلى نطاق الروحانية المبارك . وهذا يجعله فى موقف مختلف تماما عن حالة الصراع القائمة فى الحياة الاجتماعية والمادية !

* * *

وحرى بنا أن نتوقف هنا قليلا لنحلل موقف « الروحانية » تجاه المادية و الآلية ، ومع أننا قد نجد صعوبة كبرى فى تعريف العلاقة

بين الروح الإنسانية وروح الله وما يقوم بينهما من شركة فائقة الوصف إلا أننا نستدرك بداهة بتقرير وجود السيادة المادية على حياة البشر كنتيجة للفصل بين الروحانية وحياة الكمال المثلى !

لقد سيطر الإنسان على الطبيعة ولكن النظام الأقتصادى الذى صنعه قد استعبده وكذلك الآلات التى اخترعها صيرته كمجرد آلة ناهيك عن بلوغ الاستعباد للمال والمادة إلى الحد الأقصى ، والواقع أن الروح — وهو حرية مطلقة — يرفض أن يتقيد بشيء من هذا كله . فلو أن الروح كان يعتمد على الأحوال ، المادية ، إيجابية كانت أو سلبية أو على الحقائق التاريخية أو الأشكال العضوية ، فان ذلك كان يعنى تحديدا رهيبا لحقيقة الروح . وأنه وإن كانت هناك تغيرات فى الأحوال البشرية تدل على أن الروحانية تواجه بأزمة إلا أنه ليس بمقدور هذه الأزمة أو غيرها أن تنهى حقيقة الروح وحريته فانه ، يهب حيث يشاء ، وهذه طبيعته التى لن يتغير عنها !

ومن ثم فقد فشلت محاولات التوفيق بين الروح ونظام العالم الساقط لأن هذا النظام مؤسس على خداع وليس على حق ، ومهما يكن نفعه الاجتماعى فانه قد يتحول إلى خطر مدمر لحق المسيحية إذ يحوله إلى خدعة اجتماعية تقوم على محاولة مساعدة الناس وترقية أحوالهم المادية فى حين أن الحق كالروح بطبيعتهما ثوريان — أى فيهما حكم وقضاء على العالم بانهائه ، ذلك أن الروح والحياة الروحية التى يبعثها ليس مجرد رموز بل حقائق .. هنا ترتفع الشخصية البشرية بالروحانية إلى الله ... !

أما « الآلية » فقد سددت ضربة مميتة لحياة الانسان العاطفية لأنها اخضعته لسير الزمن الحثيث الذى لا معنى فيه لهذه اللحظة الا كخطوة للتى وراءها . أنها تجعل التأمل يزداد صعوبة — ولكن خلاص النفس يتطلب تركيزا ونشاطا أعظمين من الروح وقوة أكبر لمقاومة معوقاته وهنا امتحان كبير لقوة الإنسان الروحية ، ولذلك يدعى الإنسان لفترة بطولية أكثر لأجل تحقيق الروحانية وإدراك الحرية التى تبعثها وتشعلها .

ولقد تحدث خليل جبران عن ذلك بقوله : « إن حرية الروح هى الحياة بالروح وللروح : وقد ينفى البشر صاحبها من مجتمعهم لتحدى روحه الكبيرة الظلم والجور ، ولكن من لا يؤثر مثل هذا النفى على الاستعباد لا يكون حراً بما فى الحرية من الحق الواجب »

ولذلك كانت التجارب والضيقات هى النصيب الاخص للأحرار وخاصة فى النطاق الروحى ، فان شرف الإنسان كروح حر مرتبط بهذه كلها — بالاخطار والمخاطرات بأنواعها — إن ذات البحث عن الامن تجربة شريرة للحياة الدينية ، أنه خداع نفسى كاذب .. وهذه الحقيقة تؤثر فى كيان الإنسان الروحى كله . لقد تجلت فى موقف يسوع عندما كان هادئا وفى جلال مهيب يواجه المحاكمة بعكس من كانوا حوله من الكهنة والشعب وهم ثائرون عليه !

* * *

لقد ظهر « الازدواج » فى تاريخ المسيحية فانكرت العالم ولكنها

تمشت معه فى آن واحد بسهولة — طالبت بالضغط على الطبيعة البشرية بينما ساعدت على تخويف الإنسان بادعائها أنه ليس لديه قوى روحية قادرة عل مقاومة الخطية ، وهكذا حدث التصور بأن مقاومة الخطية إنما يتم بقـوى خارجية مع إنكار وكالة الروح القدس فى نفس الوقت التى بدونها لا يمكن نجاح الصراع ضـد الخطية — وذلك رغم أنه بدون التحرر منها تصبح الطبيعة البشرية مركزاً للجذب ويصبح الإنسان مركزا ذاتيا ، وبذلك يظهر كل شيء خارجياً بالنسبة للانسان بدلا من أن يكون داخلياً وعميقاً . وهذا هو عقاب الأنانية العاجل ، الأمر الذى لا يمكن تجنبه إلا إذا اختبرنا الروح كقوة داخلية وهذا أمر جوهرى لعلاج الإحساس بالأنانية والشفاء منه . وهذا هو لغز الحياة الروحية . نعم هذا يستلزم ألماً وبه يتضح الإنسان ويبدو عاجزاً لكى تظهر الروحانية كالقوة الرافعة للحياة ونحن بعد فى هذا العالم . . ولهذا تحفظ الروحانية ارتباطها بسر الألم مع متناقضات ومجاهدات الوجود البشرى وحقائق الموت والأبدية ، ويبدو أن تاريخ الإنسان الروحى هو بحث مستمر عن الانقاذ الداخلى من ألمه الخاص وآلام العالم أيضا وذلك عن طريق الروحانية كالحل الوحيد فى هذا المضمار .

* * *

أما مشكلة « السلطان » فيبدو أن هناك هوة بينه وبين الروح ... نعم ان للسلطان أهمية ظاهرة فى الحياة الدينية وكثيراً ما يخلع عليه أوصاف دينية ولكنه فعليا يخص الجانب الاجتماعى من الحياة أكثر مما يخص الجانب الروحى . . إنه يعنى وضع الروح فى حالة اجتماعية ،

وجعل الروحانية خادمة لأغراض اجتماعية مع أنها بطبيعتها لا تقبل ذلك لأنها حرة طالما بقيت بدون تدخل من سلطة ما تحبذها أو تضع العراقيل فى طريقها فانها بذلك تكون أقوى وأنقى حين تعتمد على نفسها دون مساعدة أو معارضه من هذا القبيل ! ومن ثم فان وضع «الحياة الروحية» تحت سلطان ما كالشبيه بالذين يحكمون الأمم ويسودونهم قد منعه المسيح بقوله : «فلا يكون هكذا فيكم» . فالسلطان الدينى إذاً هو صفة الوظيفة الاجتماعية فى الكنيسة ، إنه الرغبة فى الأمن والاعفاء ، ولكن هذه كلها مجرد أشواق بشرية . فان الحياة الروحية محاطة بالخطر وعدم الأمان كما سلف البيان — إن طريق الحرية ملىء بالمخاطر ، أما السلطان فيعى التقرير وهو يعمل فقط فى الدائرة الخارجية وهى بالطبع الدائرة الاجتماعية لا الروحية !

وهكذا نرى السلطان الدينى أنه ترتيب بشرى أو وضع اجتماعى فقط ، فهو رمز لبشرية لم تكتشف بعد السلطة الالهية التى تدعمها وتحكمها معا بعلاقات إنسانية مجردة . . .

وبذلك يعبر هذا السلطان عن نفسه بأقوال وآراء وإدراكات بشرية فى حين أن للروح أشواقه ووحيه فى الكلام والتصرف ، وقد يظهر ذلك السلطان فى الرئاسات الدينية والمجالس والمجامع كباقى المؤسسات الاجتماعية . أما الروح فانه هو الذى يرشد إلى جميع الحق ، وهو يعلن السيادة المطلقة التى لله والمعلنة جنبا إلى جنب فى المحبة الالهية المضحية التى ظهرت ولكن بدون مظهر السيادة ، فان الله قد تجسد إنسانا فقيرا لا غنيا وتجسد كالحق لا كالسلطان — فبالنسبة للسلطة

العالمية التى هى مجرد مظهر بشرى وظاهرة اجتماعية — لم يقبلها الله لنفسه من هذا القبيل — فانه تعالى قوة وليس مجرد سلطان . والقوة الالهية روحية ولا يمكن أن تقارن بإظهارات السلطان فى هذا العالم — فان القوة الروحية هى حرية مطلقة لا تحتاج إلى سلطات عالمية . إنها معجزة فريدة فى ذاتها بالمقارنة مع تقريرات هذا العالم وهى سر الانتصار بالسكون الروحى القائم على الهدوء والطمأنينة ... !

لقد نجحت البابوية فى بناء نفسها على أكمل عقيدة عن السلطان فوجد فيها أقوى نظام سلطانى — وهو سلطان يرتبط بالدائرة الاجتماعية للحياة الدينية مهما ادعى لنفسه بما هو أكثر من ذلك أو نسب لها العصمة فى كل شيء .. فان الموقف يزداد تعقيدا دائما عند ما تنسب العصمة إلى رئاسة دينية سواء كانت لفرد أو سنودس (هيئة متميزة) أو مجمع ما وذلك لأن الروح القدس ليس قانونا وإنما هو اقنوم عاقل مدرك هو مصدر نعمة ومحبة وحرية . إنه مستقل عن أى تقرير أو حصر ... !

ان الاعتماد على السلطة الدينية فى الحياة الروحية تجربة قد تصبح ضد المسيح نفسه — وهذا ما نراه فى الهيئات التقليدية والتى تتشبه بها لأنها تقبل أن تسير على مبدأ السلطان المتحكم فى الحياة الروحية — فان الروح يتجلى ولكن لا فى شكل السلطة الدينية أيا كان نوعها وحكمها بل فى الشكل البشرى العام . وهكذا تظهر وكالة الروح لا فى النواميس الطبيعية أو السلطة الارستقراطية أو التعليمات المدنية أو تقريرات العالم الموضوعية ، بل فى الوجود البشرى الذى يدخل فى نطاق الخلق والوحى والحب والتضحية !

هنا فى الحياة العالمية نجد تمييزا بين الغايات والوسائل وقد تبرر الغاية الوسيلة ولكن لاتمييز كهذا فى العالم الروحى حيث نجد اللحظة والابدية معاً والنظرية والتطبيق كذلك ، أنه جمع للجزئيات وتحصيل لما هو كلى .

ومن ثم فان تأثير الروح موجود دائما فى شكل الحرية لا السلبية ، ولا سبيل لفهم الحياة الروحية على الوجه الصحيح بدون ذلك . هنا نجد سر الحياة الروحية التى تختلف تماما عن حياة العالم رغم المحاولات العديدة للتوفيق بين شروطهما وحالاتهما - نعم أن التحرير الروحى بما هو مؤقت يجب أن يكون من عمل الروح المخلوقة نفسها . أنها تقبل داخليا ما هو طبيعى واجتماعى وتنتعش بنفس الموت والفساد وإطلاق الحرية والتوجه نحو الأبدية بل بإنقاذ الجسم البشرى نفسه وتحويله للروحانية وكسبه للأبدية . .

هذا هو اختبار « حرية الروح » وهو نفسه مما لا يمكن التعبير عنه لأنه فى قلب الحياة الالهية ... ! أنه طريق انتصار الحرية الروحية فوق التقريرات الطبيعية والاجتماعية ، وهكذا نرى « الروحانية » لا تحكمها قوانين مادية أو مبادىء تقريرية بل هى تطهير من كل العوامل الخارجية وانطلاق فى التحرر وبلا مسافة . . هذه هى حرية الروح فى استخدام من يشاء وكيف شاء دون تعرض له فى ذلك من أحد . . وإن كان قد أغفل حضوره من زمن طويل لدرجة صار معها الكثيرون يرون فى حرية عمل الروح القدس أمراً غريباً - مع أن الترتيب الإلهى منذ البداءة قد أعلن حرية عمل الروح ووجوب إطلاق العنان له ليعمل

بحرية إذ لا يجوز تقييده البتة ، وهو لهذا السبب عينه قد اكتسح الحواجز بأنواعها وأذاب الفوارق سواء كانت طبقية أو عنصرية أو جنسية فلم يعد هناك عبد وحر ، يهودى ويونانى ، ذكر وأنثى ... بل الكل واحد فى نطاق هذه الروحانية السامية والعجيبة !

* * *

وهكذا نبلغ بحرية الروح إلى الكمال الحقيقى - لا ذاك الذى نتوهمه بالتركيز فى ذواتنا . بل الذى نجده فى نسياننا - وذلك لأجل الاهتمام بالآخرين وخدمة ملكوت الله الابدى فى النهاية ... !

وهنا يأتى الخلاص فى شكله النهائى كتثبيت للحق فى العلاقات البشرية لتحقيق المجتمع الذى تتجلى فيه « أخوة البشر » فى المحفل الأخير الذى يشع فيه عدل الله ومحبته على عالم تمت مصالحته مع خالقه ! وإنما يتم ذلك بتحديد معالم الحرية إذ بدون ذلك لا يمكن امتلاكها فلكل نوع من الحريات حدوده : فالحرية العقلية مثلا ليست مطلقة وإلا استبد بالعقل اضطراب مظلم إذا ما خالف قوانين التفكير السليم ، والحرية السياسية هى الاعتراف بالحقوق العامة لكافة الافراد والمساواة بينهم فيها ، وكذلك الحرية الاجتماعية فهى التزامات مشتركة واجبة على أية مجموعة من الافراد يعيشون معاً ، كذلك الحرية الادبية فلا يعتبر أى شخص حرا أدبيا أن لم يلتفت إلى نداءات ضميره . . أما « الحرية الروحية » فهى أسمى أنواع الحريات لأنها تطلق الانسان فى اتجاه الانطلاق الروحى وتحرر كيانه ولن تكون هناك حرية بالمعنى الصحيح بدون ذلك ! !

الفصل السادس

حُرّية الحَركة

« إلى حيث تسير الروح يسيرون » (حز ١ : ٢٠)

لقد عرّف الفلاسفة الاغريق « الحرية » بأنها عدم الاعتماد على الغير وقدرة الفرد على التحرك لخدمة المجتمع مع احترام القانون الذى يحدد واجبات الفرد وحقوقه . ولذلك يرد البعض الأصل فى الشعور بالحرية إلى إحساسنا بقدرتنا على تحريك جسمنا كما نريد أعنى شعورنا بالجهد أو القوة الإرادية . فالحقيقة الأولى التى تدركها الذات البشرية هى إدراكها لنفسها بوصفها قوة حرة تعمل وتشرع فى الحركة بإرادتها الخاصة ـ ومعنى ذلك أن الانسان ذات مريدة فاعلة ، لا تستمد نشاطها وقدرتها على الفعل من الاشياء الخارجية ، بل من جهدها الارادى ونشاطها الذاتى .

هذا يقودنا إلى الوجود الواقعى الذى نعيشه ونعايشه وهو ملىء بالنشاط والحركة وكما هو معلوم فانه يصدر عن علة وينزع إلى غاية ويقرر ذلك ما يتضمنه هذا الوجود نفسه من ألفة وترابط وفاعلية وحياة وما يبدو فى نظمه وتنسيقه من إدراك وإرادة .

وهذه الحقائق تنكشف لنا تحت الخبرة الكاملة بالحس والعقل

والوجدان خلال حركات الوجود وحوادثه وقوانينه بل وكل ما فيه من مدركات فتظهر لمشاعرنا كما لو كانت مقدمات منطقية منظمة تليها وتتوجها نتائجها المعقولة .

ويبرر الغائية فى الوجود ما هو واقع فيه بالفعل من تطور وارتقاء ونزوع للتكمل ، فوجود الوجود حقيقة لا تحتمل الشك لواقعيته وشموله ومناقضته للعدم وميله بسائر ما يحتويه للتحول والصيرورة والتكامل ، الأمر الذى ينبىء عن قصد فيه وغاية له وفقا لقانون التطوير وهو أشمل القوانين وأرقاها ، فما النزوع إلى الكمال الذى هو الصفة البارزة التى تتوج الصفات الإلهية جميعها سوى طبع فطرت عليه الكائنات إبان تكوينها وما الكمال لو أردنا تعريفه إلا تعبير الحقيقة المطلقة بلغتها الخاصة عن معنى الانسجام والحكمة والتوحد فى الوجود بأسره !.

* * *

ومع أننا نعلم وجود القوة فى كل مكان فى العالم الميكانيكى فى الآلات والموتورات إلا أنه قد يفوتنا تتبع القوة الروحية واكتشاف أصلها فى الذخيرة الكونية وتركيز التفكير عليها بحالة ثابتة مستمرة بل والاتحاد بها باعتبارها المصدر الوحيد الذى فيه الكفاية لأننا منه خلقنا ونحن نعيش ونتحرك ونوجد فيه ، وهو الذى يقودنا إلى المثل الاعلى من الكمال والجمال .

ومع أنه قد يحدث انزعاج بسبب الظلم الحادث فى سير الامور حولنا على اختلاف صوره المتنوعة التى تكشف عن عدم عدالة التوزيع فى المجتمع البشرى ، إلا أن الله سبحانه لا يعامل البشر كالدمى أو كقطع الشطرنج إذ أنه قد أعطاهم عقلا وضميراً وإرادة ، ووهبهم فرصاً

وإمكانيات لتصحيح الاوضاع ، وبمقدورهم إذا أرادوا العمل حتما على إيجاد المساواة وتحقيق العدالة ، ولذلك فان حالات إغفال هذا الامر تحتم احتمال نتائجه دون إلقاء أى لوم على الله . . فإن مسئولية المخلوق أمام خالقه تجاه ذلك مؤكدة فى سائر الاحوال إذ أن كل واحد سيعطى حسابا عن نفسه ، عن تحركاته وتصرفاته فى نهاية المطاف أمام الله ديان الجميع !

وواضح أن معاملات الله لم تنته بالكتاب بل لها مسرحها الدائم فى التاريخ وكل فرد منا إنما هو وحدة ضمن هذا التاريخ وامتداد له فلا بد من تقبل التحرك معه . وهذا هو الدرس المستفاد من مركبة العرش المتحرك التى يصفها حزقيال فى فاتحة سفره وهى تكشف عن مهمته الخالدة فى تفهيم المسبيين الذين تصوروا أن الرب قد تركهم يتحطمون وعاملهم معاملة غير عادلة ، واعتقدوا اعتقادا خاطئاً بأنهم ما داموا فى السبى فانهم ليسوا بعد فى دائرة تأثير يهوه ، ولكنه لكى يثبت حقيقة وجود الرب فى بابل كما فى أورشليم يسجل لهم رؤياه التى يفتتحها بمركبة العرش المتحرك فوق بكرات (عجلات) يحملها الكروبيم ويسيرون وهى أيضاً تسير حيث يسير الروح ، وبذلك فقد ظهر فى بابل مبينا أن عرشه غير مربوط أو مرتبط بمكان معين ولكنه كمركبة يمكنه أن يتوجه ويتحرك إلى أى مكان وبكراته المتداخلة إنما تعنى سهولة تحركه فى أى اتجاه دون أن تدور (تلف) معلنة وجود الله فى كل مكان ومراقبته لظروف كل حالة . . وهذه القيادة الإلهية المتحررة تشمل الكائنات الروحية كالكروبيم تحت العرش وهى تمتد فتصل إلينا ونحن هنا على هذه الأرض ، فتعلن قصد الله فى تحريرنا من النير (أش ١١)

ذلك لأن النفس المقيدة هي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة إذ أن هذه الحياة لا يمكن أن يتحقق معناها بدون حرية الحركة ... وهنا يتحدانا معنى « الفداء » فانه ليس مجرد تسديد دين بل هو « الفك من القيود » وحينئذ يصبح الإنسان بالفداء كائنا حرا يعود إلى الحالة التي خلقه عليها الله أصلا وينتهى استعباده الذى نتج عن السقوط قبلا ، إذ تفقد كل الاشياء الأخرى سيطرتها على نفسه فيتحرر وينطلق من تحت نيرها ، وهكذا قد أصبح رد الحرية المفقودة إلى البشر عن طريق الفداء أمرا واقعياً وممكناً - بل أنه الطريق الوحيد لحياةالسعادة والاشباع ! وهكذا يشكلنا الله فى قالب الحرية الحقة وقديستخدم فى ذلك التأديبات والمعزيات على السواء إلى أن يحررنا بالتمام مما نحن مستعبدون له ، وهكذا يسير عمل التحرير معنا على مدى الحياة !

هذه هى الأزمة الخطيرة التى تواجهها الكنيسة وخاصة - اليوم - أنها أزمة التحرير ، فكم من إمكانيات وطاقات معطلة كان بالإمكان أن تحدث انقلابا هائلا فى تاريخ الكنيسة المعاصرة فيما لو أطلقت... !

ولكن هذا لن يكون إلا إذا رأت الكنيسة ارتباط الروح والقوة معاً ، وكيف أن الروح وحده هو مصدر النشاط وبدونه تفقد الكنيسة حرية الحركة وتصبح تمثالا مثل أى شىء آخر مما نراه فى الحياة الاجتماعية اليومية . . !

هذا هوقلب الحرية التى هى هبة الروح القدس، وهى بمثابة نسيم منعش كان يهب على الكنيسة الأولى فيقودها إلى المثالية المطلقة ويشدها إلهام الداخل بعكس النظام الناموسى الذى كان يضع المتهودين على باب المقدس على حافة المجتمع القديم ويوقفهم جامدين هناك بلا تقدم أو حراك . .

ومع ذلك فان كنيسة أورشليم - وهى أم الكنائس - كانت بطيئة إلى حد ما فى فهم طبيعة العهد الجديد الذى أشرق فبقى معظمها محافظا ، ولكن كان هناك بطرس يتابع تحركات الروح المتحررة وكان هناك بولس يدفعها قدما إلى الامام - ولو كان المحافظون كسبوا موقفهم حينئذ لانتهت إرسالية الكنيسة وتقوقعت ، ولأضحت المسيحية مجرد فرقة يهودية ، ولكن الله قد ضرب ضرباته المتتابعة بتجديد كرنيليوس الأممى ومن بعده تجديد شاول الطرسوسى أيضاً أقسى مضطهد للكنيسة وتحويله إلى رسول الجهاد والحرية للامم - وهذه هى طرق الله دائما . فكم قابل المسيح من نفوس حررها ثم أطلق طاقاتها المخبوءة ودفعها فى خدمة الآخرين وقد فعل ذلك على مر التاريخ المسيحى بأسره فجعل الأسرى أحرار يتحركون فى كل اتجاه دون أن يعوق مسيرتهم الناس أو الاشياء أو الظروف !

هذا هو الغرض الحقيقى من الروحانية ، إنه الخروج من الانحصار النفسى والتمركز الذاتى وغلبة الانانية - إنه انتصار لما يجب أن يكون الانسان عليه . . ومثل هذه الانطلاقة هى القداسة الحقة لمواجهة الحاجة وليس لوضع أشياء فى منزلة التقديس الذى بموجبه لا يجوز أن تمس . . ومن هنا ليست هناك قدسية للبرامج إن كانت لا تتحرك إذ أن الاحتياج إنما هو للمجتمع كله كوحدة متحركة ، وفى كل مجتمع متطور نجد تطوير البرامج وكسر الروتين حتى يتسنى لكل فرد أن ينطلق فى اتجاهه دون تعوق أو استعباد وخاصة وأننا فى تطور كبير جداً فى الناحية العلمية وقد انتهى عصر الارستقراطية والتحفظ ، ولم يعد هناك مجال لمن يجعل إطار تحركه لا يزيد عن المربع الواقف عليه فانه بذلك

يكون غير منطلق فكريا إلى آفاق أبعد - فلا تحرك لأى مدى ولا تشغيل للطاقات : أما التطور الذى يبدو فى تفتح الذهن لا كثر من مجرد تلقى المعلومات - وهو عكس الجمود - فهو الذى يجعل التفكير ديناميكيا أى حياً متحركا يقظا يسعى فى الاتجاه التقدمى ! والناس عادة يتجاوبون مع التغيير أو التطوير عندما يثبت نجاحه !

* * *

أما الذين يتحركون لله فى كل جيل فانهم « حملة مشاعل الحرية » ، وتظهر أهميتهم فى قبولهم أمانة الشهادة لله فى سائر الاوقات وخاصة عند حدوث الازمات حتى أن زمان الضيقة العظيمة لن يخلو منهم مع الشاهدين الأمينين (رؤ ١١) . . أنهم « ضمير البشرية » فى الوقت الذى تصمت فيه الاصوات الأخرى . . وكل ما يقولونه ويفعلونه أنما هو بقوة الله هذا هو مصدر حياتهم المذهلة عند تعاملهم مع الناس ومع الظروف - أنهم يتكلمون فى المواجهة ويعلنون الحقائق ليس بوجه عام فقط بل وأيضا فى الحالات الخاصة - ما أسعد أمثال هؤلاء من رجال الله الذين هم أحرار بالكفاية ليعلنوا الحق فى كل المجالات . إن التهديدات لن تؤثر فيهم وكذلك لا يمكن للإغراءات أن تدفع بهم بعيداً عن طريق الواجب !

هذه النماذج — نماذج حياة الحركة الحرة — يمتلىء بها سجل التاريخ المقدس . ومنها إيليا النبى : كان رجلا يقوده الله . لم يكن أحد يعرف إلى أين سيتجه ! كان يظهر ويختفى دون توقع — حينما كانوا يفتشون عليه لا يجدونه ، ثم فجأة وبغير انتظار كان يظهر فى أماكن أخرى . إن هذه الحرية الخارجية علامة على الحرية الداخلية التى كان

يتمتع بها ... اختفى بعد أن أنبأ بالقحط ثم عاد للظهور لتحدى كهنة البعل والقضاء عليهم لجاء المطر .. ثم جاءت أزمة نابوت ولم يعرف كيف يواجهها آخاب لأنه لم يكن حراً ، ولكن إيليا الرجل الحر واجهه بإعلان قضاء الله عليه وعلى إيزابل معه — فان العدالة الإلهية تتصرف عندما تخيب العدالة البشرية . وأخيراً لم تؤثر فى إيليا التهديدات بل وُجد كرسول موت للقادمين للقبض عليه ، وبقى حراً دائماً ، وبقى حراً دائماً إلى أن أخذه الله — وهنا نشاهد إيليا الذى واجه عبودية الأصنام وحطمها يواجه عبودية الموت التى تحكمت فى كل كائن بشرى .. وان قصة انتقاله السرى لتعلن هذا الحق — حق الانقاذ الأخير الذى سيأتى فى يوم ما ويهزم فيه الموت نهائياً !

كذلك كان عاموس رجل الله الذى نما فى الوحدة وكان حراً كريح الصحراء لما كان ينفخ عليه روح الله كان يسير حيثما يخبره الله أن يذهب وحين أرسله إلى بيت إيل طلبوا إليه أن لا يتكلم ويغادر المدينة ولكنه رفض أن يفعل ذلك لأنه كان إنساناً حراً ، يعلم أن الله قد أرسله !

وأما أرميا فيرينا حرية الدينونة بالنسبة للحوادث والأشخاص المرتبطين بها ، وأيضا ثمن الحرية فكل نبوة كانت تكلفه دموعاً ودماً . كان يود أن يهرب من مهمته لكن ذلك كان مستحيلا . لقد وضع الله — بسلطانه — يده عليه من بطن أمه وقد كسر كل القيود التى كان يمكن أن تمنعه من أن يكون صوت الحرية فى عالم أسير مقيد . كان عليه أن يعلن الحرية لأنها « سر الحياة » . كان قد ترك كل شىء لأجل الله فأصبح

حراً ليتحدث إليه عن مشاكله ، وقد اكتسب أرميا فى حرية تحدثه مع الله القوة التى احتاجها ليتكلم بالحق للناس . . . !

ولقد كان رسل المسيح من أبرز حملة مشاعل الحرية فى مطلع العهد الجديد وقد سجل سفر الأعمال تحركاتهم التى أذهلت المسكونة وهم يقودون هذه الجماعة الجديدة التى انتمت للمسيح . لقد حطموا قيود زمانهم وانطلقوا وهم يشعلون ثورتهم الروحية فى كل مكان . كانت هذه هى الحرية البهيجة التى حطمت كل الأسوار التى كانت تحجزهم من قبل ، فلم يعد هناك سجن ما ليسكتهم . . اعترفوا بالله كالسلطان الأعلى ، وكان هذا هو جوابهم وهو أساس حرية المسيحى بالنسبة لسلطات العالم الدينية والدنيوية . . كان هذا هو الشعار على مدى تاريخ الكنيسة وخاصة فى أزمنة الضيق والاضطهاد . هذا ما أعلنته جان دارك بقرارها : « إن الله يجب أن يكون أولا » ، وكذلك لوثر عندما قال : « هنا أقف ولا أستطيع أن أعمل شيئاً آخر ، فليكن الله معى » .

وهكذا يظهر الله دئما كالمحرر الذى يسمع أنين الأسير ويكسر قيوده ويرفع اليائس من الذل والمرض بل ومن الموت نفسه إلى أن يأتى بالابرار إلى السماء الجديدة حيث يتمتع المفديون بحرية الخرلة فى سعة أفراحها الأبدية !

الفصل السابع

حرية العلاقة

« وجميع الذين آمنوا كانوا معاً » (أع ٢ : ٤٤)

ليس الإنسان (ترسا) فى مجتمع ، وإنما هو كائن حر له أن يعيش كما يشاء ، وبمقتضى حريته وإرادته يكون فى مقدوره أن ينشىء علاقات مع غيره ويعمل على تنظيمها . وذلك لأن الإنسان أينما كان هو مخلوق اجتماعى ينمو عقله وسائر قدراته كلية من خلال تفاعله مع غيره من الكائنات البشرية الأخرى أى بواسطة وعيه بعلاقاته ومسئولياته تجاه الآخرين باعتبار أن ذلك هو طريق المثل العليا التى تشكل أفكار المجتمع حيث نجد علاقات بين الطبقات بعضها البعض ، وعلاقات داخل الطبقة الواحدة ونجد فى هذه كلها التفاعل بين الانظمة والتنظيمات داخل المجتمع !

فالفرد إذاً ليس ذلك الكائن المنعزل على أى حال بل هو كائن حى لا يستغنى عن الحياة فى مجتمع ما - أنه كائن اجتماعى بطبعه لا يحيا إلا فى نطاق الجماعة ، وإذا كان الصالح المشترك هو صالح المجموع فهو فى ذات الوقت صالح كل فرد فى هذا المجموع على أن الانسجام المنطقى بين حريات الافراد لا يتم مصادفة كمعجزة ، بل هو يستلزم افساح الطريق للآخرين للتفاعل فى خضم من المصالح المتنافرة والمشتركة ، وهذا يوجب على الفرد أن يعمل من جانبه للخروج عن فرديته المنعزلة ليزيد

روابطه واحتكاكاته بالآخرين ، ويجب أن نغرس فى الاذهان شدة الترابط بين سعادة كل فرد وسعادة المجموع . فإن الارادة الانسانية السليمة تواقة بطبعها نحو القمة العليا أى الكمال .

وعندما نتقصى أصل الحرية فى الانسان نجدها مرتبطة ارتباطا وثيقا بظهور الادراك والتمييز عنده وهما يلقيان تعبيرهما فى « التنظيم » النابع عن عقلية قد ارتفعت تحت تأثير مختلف العوامل المؤثرة فى الوجدان الانسانى تلك التى حررت المجتمع من كثير من القيود التى لا يبدو مع التقدم أن لها سندا منطقيا يبرر وجودها . وعلى العكس من ذلك تدخل إلى مجموع القواعد المنظمة المجتمع قواعد أخرى تظهر مبررات منطقية أخرى وجيهة تستدعى إيجادها .

فالمرء ليس حراً إلا من خلال تنظيم اجتماعى تتأتى له فيه إمكانيات التفتح الكامل . . فالامر ليس أمر الاعتراف للفرد باستقلال وهمى ، بل تحريره وتخليصه من القصور والعوز والتبعية ليجد فى النهاية حرية أثبت مقاما وأجدى نفعاً . . على أن حرية الفرد هنا لا تعنى سلطانه المطلق ازاء الآخرين وإنما تعنى فقط احترام شخصيته الانسانية فى إطار الاهداف التى تسعى إليها داخل نطاق الحدود التى يحترم فيها الافراد بعضهم بعضا ، ويتعاونون بغية تحقيق هدف مشترك مما يقتضى إخضاع سلوكهم لقاعدة عليا تسرى على الجميع . . ! ؟

والواقع أنه ما من حركة تقدمية جادة بغير تصورات لما سيكون عليه المستقبل أو ما يجب أن يكون عليه بفعل السيطرة عليه وتطويعه ليتفق والصورة المرجوة ، ولذلك فانه من الخطأ الاعتقاد بأن التقدم

أمر طبيعي يتم من تلقاء نفسه ، لأن التقدم في حقيقته من صنع البشر ومن أجل البشر ، ويحتاج إلى عزيمة ساهرة وجهد دائب لدفع الاوضاع الاجتماعية إلى الأمام ... !

ومادام القصد النهائي للبشرية بأسرها هو « تحرير الانسان » ، لأن الانسان الحر هو أساس المجتمع الحر الذي تذوب فيه الفوارق بين الطبقات ويزول التصادم الطبقي الذي يهدد الحرية الفردية والعامة على السواء ـ لذلك فلن تكف نداءات الحرية التي تذكر البشر بأن لهم تاريخا واحدا وحقيقة واحدة ، وأن عليهم أن يصطنعوا حريتهم في كتابة هذا التاريخ وتحصيل تلك الواقعة . فإن الحد الفاصل بين الحياة الخصبة والحياة العقيمة يتوقف على الاختيار بين التقوقع الذاتي وبين المشاركة الحقيقية في ركب الحضارة العالمي !

وهكذا يجمع الانسان في محيطه بين عالمه الخاص وبين عالم بشرى يجد نفسه فيه جنباً إلى جنب مع موجودات أخرى بشرية مثله . فإن ثمة شيء آخر غير ذواتنا وغير ماندركه إدراكا مباشراً لابد من أن يكون موجودا ، وأن من بين الاشياء الموجودة خارج نطاق ذواتنا ... أشخاصا آخرين غيرنا لهم افكار ومشاعر مماثلة لأفكارنا ومشاعرنا . . هذا هو النسيج الاجتماعي للوجود البشري بوصفه يحيا دائماً مع الآخرين وهم الذين يوجد معهم ويوجدون معه سواء بسواء . وكما أن الوجود في العالم هو من مقومات الوجود الانساني ، فكذلك الوجود مع الآخرين هو أيضاً من مقومات هذا الوجود . ومعنى هذا أن الذات لا تجد نفسها مجهورة قد تم الفصل بينها وبين وجودها الخاص فحسب ، وإنما تجد نفسها أيضا في عالم الشخص الآخر الذي تتعامل معه وتعيش

إلى جواره ... وبمقتضى ذلك نتجاوز الجانب الفردى من وجودنا لكى نتغلب على ما فينا من أنانية ونسمو بأنفسنا نحو مستوى المحبة والتعاطف ، هذه المحبة التى تنشىء ضربا من التفاهم المشترك بين سائر الافراد .. وذلك بفعل التعاطف الذى يتم عن طريق « التأثر الوجدانى المشترك » أو الذى يتم عن طريق المشاركة فى ألم الآخرين أو سرورهم أو الذى يقوم على الفهم أى التفاهم الوجدانى الذى يفهم قلق الآخرين . ! ومما يؤكد بأن الحياة الشخصية ليست هى الحقيقة الاولية ، فإن الإنسان يحيا أساسا وبادىء ذى بدء فى الآخرين ، لا فى ذاته ، وهو يحيا فى الجماعة أكثر مما يحيا فى فرديته الخاصة .. !

ومع أن الكثير من الآلام والمتاعب قد تأتى دون أن يكون للمرء يد فيها وقد يقاسى البرىء بسبب خطأ ارتكبه آخر ولو عن غير قصد إلا أنه مع ذلك ما أكثر ما ننتفع من صلاح الآخرين وحكمتهم ومجهوداتهم الطيبة . ولو عاش كل منا فى صومعة بعيداً عن غيره لكانت خسارتنا أقسى آلاف المرات ! .

ومن ثم فقد نادت المسيحية بالعدالة الاجتماعية والسلام والحرية وقادت حركات التحرير وعملت على إبطال الرق وفعلت الكثير نحو خلق المجتمع المثالى وذلك لكى تدفع بالإنسانية فى طريق الكمال حتى تبلغ إلى ما يعرفه الله لها من أبعاد كمالها ... هنا « ملكوت الله » كلمة السر حيث يستطيع كل واحد أن يشارك بجهده وإيمانه وحبه وأمله — إنها دائرة القلوب والأفئدة التى تتنازل عن حقوقها الخاصة تجاه بعضها البعض لأجل حقوق الآخرين الواجبة علينا .. ومن هنا تنبع مملكة

الحب والحق والعدل من إرادة الفرد الخاصة التى يعمل فيها مع المجموعة إذ يستطيع الإنسان أن يضع نفسه فى موضع الآخر كما يستطيع أن يجعل الدائرة التى يحيا فيها الغير دائرة خاصة به فلا يجرب واقعة إلا من خلال لقائه مع شريكه أو مع الآخر . ستتحقق إذاً مملكة الله على الأرض عندما يذوب الفرد فى تطور الكل ونموه وتصبح لغة الحب شريعة للسلام والتفاهم .

هنا نشاهد القانون نفسه خادماً للحرية وليس سيفاً مسلطاً عليها - لأن مجتمعاً بلا قانون لن يكون مجتمعاً حراً ، بل سيكون مجتمعاً فوضوياً يسحق قويه ضعيفه وحينئذ تكون الحرية أداة للجور والطغيان بينما القانون دائماً أداة للتحرير والتنظيم إذ أن سلطة التشريع فى نهاية مداها لابد أن يحدها الصالح العام للمجتمع أى رعايته والمحافظة عليه .

وهكذا لن تكون الذات ذاتا « حقيقية » اللهم إلا إذا تفتحت لغيرها من الذوات لأن الحرة لا تعيش إلا فى عالم من الحريات ولا سبيل لى لتحقيق ذاتى إلا بالتآزر مع غيرى من الذوات .. صحيح أن وجودى الحقيقى منبعث من صميم ذاتى ، ولكن ليس ثمة «وجود أصيل» دون أن يكون هناك تواصل شعورى بين الذوات بعضها البعض . وهذا التواصل لا يتم إلا بين الموجودات الحرة فهو لا يتحقق إلا بين حريات يقوم على أساسها التكافؤ والمساواة لا الضغط والقسر .

والواقع أن الوجود الذاتى لا يطلب إلى غيره من الوجودات الذاتية أن تحاكيه وتسير على منواله ، بل هو يريدها أن تتخذ طريقها الخاص وتسير نحو غايتها الخاصة . ومن هنا فإن التواصل يتم بين ذوات حرة ، على أن تحتفظ كل ذات بما لها من حقيقة خاصة ، وفردية وأصيلة

وشخصية فريدة هي نسيجها المتميز . وهكذا تستبقى كل ذات عزلتها الأصلية واستقلالها الذاتي ، لكي تقيم صلتها بالذات الأخرى على أساس من المواجهة والمصارحة والصراع الودى ! . وحين يتحقق مثل هذا التواصل بين ذاتين ، تكشف كل منهما للأخرى عن جوانب خفية عميقة من صميم وجودها .

وهنا تتحقق المواجهة بين الذاتين ، فترى الواحدة منهما الأخرى دون حجاب . . !

إذاً ، ليس الإنسان وحده في صحراء الوجود بل لابد له من الحوار مع الآخرين وأن يفتح أذنيه لسماع صوت إخوته في الإنسانية وذلك من أجل إيقاظ الذوات الأخرى واستثارتها لتحقيق إمكانيات الحياة الإنسانية ، والكشف عن المعنى الحقيقي للوجود البشري وبذلك تنكشف لنا الآفاق التي يمكن أن تنفتح أمام انسان العصر الحديث إذا عرف كيف يحقق « وحدة البشرية » . . !

وهكذا فان علاقاتنا الجوهرية بالغير لا تجعل من الوجود البشري مجرد انطواء على الذات ، بل تجعل منه « وجودا مع الآخرين » بل إن وجودنا الفردي نفسه — وهو ذلك الشعور الذي قد يوهمنا بأننا موجودون وحدنا دون الآخرين — إنما يبرز فوق « أرضية » من الشعور الجماعي ولكن ليس معنى ذلك اتخاذ الوجود مع الآخرين ذريعة للتنازل عن الوجود الخاص لأن هذا يؤدي بالفرد إلى فقد إنسانيته وحريته وصيرورته موضوعا ينطق بلسان الآخرين ويتحرك في مجالهم . .

ولا شك أن هذا الوجود المشترك « الفردي والجماعي معا » يتجلى

بأوضح بيان فى خلق الله للإنسان ــ رجلا وامرأة ــ فلقد قصد بذلك أن يؤسس بينهما علاقة شخصية حية تعكس المحبة والوحدة والثقة وتعبر عن « حرية متبادلة » فى نطاقها . . وكانت التجربة بالنسبة لهما الرغبة فى الوصول إلى « حرية مطلقة » يتمتعان فيها بسيادة تامة — الأمر الذى يحلم به البشر إلى اليوم — وإذ قد سقطا فى اشتهاء هذه النقطة الواحدة نجدهما قد فقدا الحرية وبدأ كل منهما يخجل من الآخر ويختفى عنه فقد أحسا بنقص كيانهما وفقدا السيطرة على نفسيهما وبالتالى فقدا بهجة العلاقة المتبادلة بينهما كما اختفيا من الله ولم يعودا يعيشان فى حضرته وكل منهما بدأ يعاير الآخر ويلقى عليه اللوم ، ولم يعد هناك مجال لإعطاء النفس حريتها كما كان من قبل . . وهنا تدخل الله بالذبيحة لمعالجة الموقف وفتح الباب لاسترداد هذه الحرية المفقودة .

واستمر البشر يدركم المباشر يتفهمون العلاقات اليومية التى تقرر طبيعة المواقف وذلك بإدراك تصرفات الآخرين ليس فقط مجرد ألفاظهم بل وحتى تحركاتهم كالتى تعبر عن أفكار وآراء وعواطف ورغائب مشتركة فيما بينهم ــ لأنه غالباً ما تكون كل المواقف التى نواجهها فيما عدا الحوادث الآلية الجسيمة مواقف إجتماعية مباشرة أو غير مباشرة ، هكذا أيضاً مع أهداف الحياة ولكل هدف إشارة معنوية للمجتمع . . فان كنا نريد أن مصادر البيئة الاجتماعية تقدم لأقصى حد نجاحا وسعادة للفرد الذى هو كائن إجتماعى فان تصرفات الآخرين تعمل نموذجا عند اتصالها بتصرفاتنا فى مبادلات الحياة اليومية المستمرة . !

ولا شك أن طريق تقويض الحياة هو اشتغال الإنسان بنفسه :

ولكن هناك سبيل واحد إلى الشخصية الكاملة التناسق وهو أن يوسع الإنسان نفسه فيجد خارجها مشاغل لها قيمة ينصرف إليها فينسى نفسه أى يعفى نفسه من نفسه ، فينخرط حينئذ فى الشئون العملية الموضوعية بسهولة ويكون بحكم استعداده النفسى أشد رغبة إلى تجاوز نطاق الذات ويكتسب صبراً وجلداً على النقد ، بعكس الرجل المنطوى على نفسه ذاته شديد الاحساس بالنقد ضيق الأفق . . مع أن اتساع أفق النفس بلا جدال يؤدى إلى القدرة على احتمال المتاعب ، فاننا نجد عاملا مشتركا بين جميع الذين يستجيبون لما يهيب بهم من الحوادث الجسام ويحشدون قواهم لمقابلتها وهذا العامل هو أنهم يفكرون فى غيرهم فضلا عن أنفسهم . وإذا استطاع انسان أن يمزج نفسه حقا بأشخاص آخرين ، فانه يكون قد أتى أمراً له قيمة عظمى لنفسه على غير عمد .

لقد كان المسيح يحكم على الناس فى الانجيل من وجهة نظر تختلف تماما عما نفعله نحن فاننا كثيرا ما نحكم عليهم بصفاتهم أو عيوبهم أو أهميتهم الاجتماعية أو خدماتهم أو مراكزهم أو فى ضوء أفكارهم أو أفكار الجماعة التى ينتمون إليها ، أما بالنسبة للمسيح فان كل إنسان إنما هو كائن بشرى يجب إعادته لله — قد يكون محتاجا إلى الشفاء ليتحرر من المرض ، وهو ينتظر الحرية لتفك قيوده ومن ثم فقد نادى المسيح للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق ! وقد واجه فى نفس الوقت مشكلة الفريسية — الاكتفاء الذاتى مع الانفصال عن الآخرين والتغالى فى حفظ شكليات الناموس — وكان موقف يسوع غريبا بالنسبة لها وخاصة أنه اتصل بمن نبذهم المجتمع ومن ثم كانت حرية اتصاله بالأشخاص غريبة حقا ، فقد دعا نفسه للعشاء فى منزل لاوى جابى

ضرائب كما دخل بيت زكا العشار، وكانا كلاهما موظفين لدى الحكومة الرومانية المستعمرة، ولكنه دعا أيضا الغيورين ليتبعوه أى الوطنيين المتطرفين، وقد وجده تلاميذه يوما جالسا على بئر يتحدث مع امرأة سامرية.. ألم يعلن على الملأ بأنهم «سيأتون من المشارق والمغارب إلى الملكوت» وبأن «الزناة والعشارين سيكونون الاسبق فى دخول الملكوت» لقد كان أكثر لطفا وعطفا نحو من كان يحتقرهم المجتمع ويرفضهم كما كان قاسيا صارما نحو الذين أخذوا الكثير ولم يظهروا فى مقابله شيئا.. لقد استطاع أن يكسر قيود امرأة كان يعتبرها العالم هالكة وأما هو فنظر إليها ككائن بشرى يحبه الله وفى موقفه العـــام نحوها أشعرها بشرف الأنوثة إذ لأول مرة ينظر إليها رجل بلا احتقار مشعراً إياها بأنه حتى لمثلها توجد فرصة لحياة جديدة..!.

هذا هو سر معاملات المسيح عند اتصاله بالأشخاص: لقد عمل ثورة صامتة فى المجتمع ليرد «العلاقات الأصلية» إلى مواضعها فرفع الساقطات وقبل المرذولين، بل واحترم الهيكل مع أنه وصف الكهنة باللصوص يتجمعون داخله كما لو كان مغارة.

لقد احترم الناموس وكشف عن معانيه السامية ولكنه عامل الفريسين بأقصى صرامة لانهم يقولون ولا يفعلون ـــ هذه المعاملات كلها إنما كانت حرية الله نفسه الذى ينظر إلى القلب لا إلى المظاهر ـــ نظرات المحبة المنقذة التى تسعى وراء الكائنات البشرية حيث هى ـــ أن المؤسسات بل والكنيسة نفسها ما هى إلا مجرد آلات فقط فى خدمة عمل الله العظيم نحو خلاص البشر وجمعهم فى صعيد العلاقات الحرة.

قد يظن بعض المسيحيين بأنهم يتمتعون بالحرية وقد وصلوا إلى

درجة كافية من النضج الروحى تمكنهم من الحكم على الآخرين ،
وقد يحتقر الواحد من هؤلاء أخاه لانه أقل حرية منه .. ولكن
إذا كانت حريتنا لا تعمل فى قلب الكنيسة وفى شركة إخوتنا وفى تسليمنا
للمحبة المتبادلة فانها تواجه خطر الانحطاط إلى الفردية أو التحزب ،
وقد تتحول إلى غرور وكبرياء تعيد إظهار الذات فى شكل جديد
مكروه أكثر من ذى قبل فتعلو فى طبقية أو تدفع غيرها للانكماش
فى جمود وارتياح نفسى وهمى — ويبدو أن هذا هو الخطر الذى قد
هدد كنيسة كورنثوس وفى الخطاب الذى وجهه بولس لهذه الكنيسة
نرى كيف أن المحبة تهتم بحياة المجتمع عندما تعمل لتحريره : فقد يوجد
هناك شيء أريد أن أعمله وقد يكون مشروعا فى حد ذاته ، ومع
ذلك فمراعاة لخاطر أخى لا يجب أن أنفذه — إن معرفتنا تبدو بلافائدة
إن كنا لا نمارس المحبة ، لئلا نجعل حريتنا معثرة للضعفاء . إن حجة
بولس هنا أننا يجب أن نرفض الشيء الذى يمكننا عمله بحريتنا الكاملة
إذا شعرنا أنه قد يتسبب فى ضياع أخ ضعيف ..

إننا نحتاج إلى الالتزام بالنظام الكتابى الذى يحدد حرية العلاقات،
ومداها فان بعض الكنائس تضع قواعد لأعضائها فى شأن كافة الأمور
والبعض الآخر تدعى الحرية المسيحية وتترك مثل هذه القرارات لحرية
الفرد . والواجب هنا تجنب الفريسية ولكن هذا لا يمنع من وضع
نظام عام دقيق يحكم الجميع ... ! فان تسلية ما قد تكون بريئة لواحد
وقد تكون خطيرة لآخر ، فان كان مثالى فى أمر ما قد يصبح تجربة
لشخص آخر فمن واجبى أن امتنع عنه .. ومع أن كلمة الله تقرر حرية
استعمال أشياء هذا العالم إلا أنها تحذر من الاستعباد لها ، ثم يجب

أن أضع نفسي في مكان الآخر وآخذ موقفه — هذه هي الحرية التي تطلب الكائنات البشرية حيث هي ، وتعطي اعتبارا للاوضاع التي يعيشون فيها والتي توجد في حياتهم فان مصلحة الكل هي مصلحة الأجزاء : أن الاستقلال الداخلي للاعضاء هو الحد الذي وضعه الله لحرية كل عضو منها . فالحرية الشخصية تدور في فلك الصالح العام وكذلك البنيان الشخصي في مرتبة تاليه للبنيان العام .

هذا هو المبدأ الجوهري لحياة المجتمع : الحرية المقرونة بالنظام ، والنظام هنا يحتم « السلطان » وهو قرين الحرية وليس ضدها لأن الحرية بدون سلطان تصبح بلا التزام أوحد . . إن الخدمة الحرة لله هي التي لا تفرض على الناس بل يقبلونها بمحض إرادتهم .

ومعلوم أن سلطان الله مطلق وأما الإشارة بطلب الخضوع إلى السلاطين الكائنة فهي لا تتجه إليهم في ذواتهم بل إلى النظام الذي يمنع الفوضى .. على أن الكل في النهاية سيقفون في معرض الحساب ، ومهما حاول البعض أن يقصر هذه المحاسبة على دائرة نفسه إلا أنها بطبيعتها نجدها تتسع جدا لأن تقديم كل واحد الحساب عن نفسه لله إنما تقرير جاء في معرض الحديث عن العلاقة بالآخرين وكتعقيب عليها (رو ١٤) فدائرة العلاقات بأسرها نجدها داخلة في الحساب وذلك لأن الحياة هبة عزيزة ، منحة غالية من الله في كل نفس — ولذلك فان الله يريد أن يطلق امكانياتها — فليس قصده أن يمنح الحرية لفرد معين ويمنعها عن غيره لكن قصده أن يكون الجميع أحرارا بالاطلاق . . وفي ثنايا هذه الحرية الجماعية يزداد النور بهاء ويتسع نطاق السعادة حين يستلم الله حياة كل فرد ضمن الجماعة ، وقد يستلزم ذلك تدريبا قد يكون

عنيفا أحيانا لأجل تعلم هذا الأمر وتقبله للوصول إلى احترام حق الله فى حياة كل إنسان على السواء. فالخلق بالنسبة للجميع واحد والهبات الأساسية فى مقومات الوجود واحدة . . بل أن هناك عدالة يمكن تحسسها فى توزيع الإمكانيات والقدرات الطبيعية، وأما الهبات الروحية فهى مقدمة للجميع بالتساوى وبمقدور كل واحد أن ينالها متى طلبها وجد فى طلبها .

وانطلاقا من هذه الأساسيات فان « حرية العلاقة » لا تعطى مجالا للمحاكمات والخصومات لأنها تحاسب على المشاعر المتبادلة وتتيح الفرصة لفتوحات المجال الروحى والإنسانى الواسعة النطاق .

إن على كل شخص أن ينتبه لانه سيعطى حسابا لا عن نفسه فقط بل عن تصرفاته تجاه الآخرين ، وعلاقته معهم حتى لا تتعطل نفس واحدة أو تحرم من امتيازها الخاص بوجودها لعدم احترام « حرية العلاقات »

والامعان فى خطة الله نجده يقيم بعض الافراد كقادة لتحرير غيرهم ، وهو سبحانه عندما يحرر أفرادا ويستخدمهم لا يقصد أن يستمروا اشخاصا معزولين بل أن يخلق منهم مجتمعا حرا تماما يحكمه قانون لا للقضاء على حريته بل للحفاظ عليها حتى لا يقعوا تحت العبودية فى الداخل ثم خطر الغزو الضاغط من الخارج : لان الشيطان إذ يعمل من الداخل بشن حرب المغريات والصداقات الزائفة ، يحاول فى نفس الوقت إيجاد الحصار من الخارج ومصادرة الحرية فى نطاق العلاقات عن طريق الدعايات الكاذبة والاشاعات المغرضة . وهنا من لا يعرف حدوده ويقبل المكان المعين له على أساس احترام « حرية العلاقات » فانه لن يهدأ وستذهب مجهوداته عبثا .. أما الذى يحترم هذه العلاقات فسيجد فى ابتسامتها تبديدا للهموم وفى التعزيات الجماعية هتافات

الانتصار والتقدم على أساس عدم احتقار أى إنسان طالما هو يحترم العلاقة المشتركة ويعطيها تقديرها الواجب ..!

ومن بين الأشياء التى تقوم عليها « العلاقات المشتركة » المـال وهو كسائر الممتلـكات يتصوره الناس بأنه نابع من الأرض فيطلبونه كمطمع ويتحكمون فيه كممتلك فردى غير عابئين بحاجة الذين حولهم ، وهذه الأفـكار نفسها تتغلب على الأغنياء والفقراء على السواء حتى أنهما لو تبادلا حالتيهما لما تغير التوزيع فيما بينهما لأن التغيير فى الواقع يجب أن يكون أساسياً قبل أن يكون مظهرياً فى المجتمع أو الاقتصاد ، فيجب أن يفهم الناس علاقتهم بالله وببعضهم البعض كورثة بوجه عام للينابيع الـكونية التى فيها الـكفاية لهم جميعاً ...!

وكذلك الجنس لا يزال أعمق جداً وأشد تغلغلا فى الشخصية البشرية مما يبدو لأول وهلة فهو أساس بناء المجتمع كله بما فيه من علاقات. ومع ذلك لا يمكننا إلا أن نتصور الفوضى بعينها إن لم يضبط وتعرف الحدود التى يجب أن يقف عندها فى نطاق العلاقات الشرعية التى تـكرمه وترفع من قدره !

وأما فى دائرة العمل فإن كل كائن بشرى يشتاق إلى النجاح فيه مع ما يتبعه من راحة وهناء وذلك بنوال الفرصة لإظهار المقدرة والإعجاب الجماعى به ، والاعتراف الاجتماعى فى الصداقة والتعارف بمن تلذ معهم العشرة كطريق لنمو شخصية الفرد واتساعها لأن ذلك يستلزم أولا اكتشاف المواد اللازمة لتوسيع النشاط فى قلب البيئة ومنها وبالأخص فى العالم الخارجى وعالم الأشياء فيجب أن تتوافق مع أهداف الحياة المختارة وتساعد على الوصول إليها حتى لو لم تـكن هذه المواضيع هى بعينها التى يطلبها الطموح ! وبعكس ذلك فإن الشاذ المركز ذاتيا

والحساس الكئيب هو الذى يميل إلى أن يلتف فى ذاته التفافاً كثيفاً حتى إنه لا يتمكن من رؤية المواقف الدائمة التغير والمتقلبة من حوله بالاحد!!

وهكذا نرى أن إتمام الواجب الأدبى يتطلب التوافق الحكيم مع البيئة من جهة النماذج الأساسى وفهم الحقوق الأصلية بين الأفراد — وفى الواقع نجد أن كلمة « توافق » هى المصطلح عليها للسلوك الاجتماعى الناجح وهى تشير إلى صفة سلوك الفرد من ناحية المجتمع ، والتوافق الحقيقى يستلزم أكثر من مجرد التوجيه فى العلاقات البشرية الخارجية ، ومن هنا لزم أن يكون هناك توافق داخلى عميق ... !

هنا نجد العنصرية والجنسية والطبقية كلها تختفى ، ومع أن لكل دائرة منها سلطاناً ولها حقوقاً وعليها واجبات إلا أن هذه الأوضاع كلها نابعة من هذا العالم وستمضى معه . أما المسيح فقد جاء ليؤسس مجتمعاً جديداً بدون سلطان مظهرى وخالياً من اللمعان والبريق — هنا فى هذا المجتمع تحررت الحرية من منفعة الذات ومحبة القوة وكذلك الجبن الكاذب — فيالها من ثورة اشعلتها المسيحية بإعطائها المرأة والعبد شرفهما البشرى الكامل ، فهما مدينان لمن أعطاهما مكانتهما داخل الكنيسة ، مكانة لم تكن لهما قبلا فى اليهودية ولا الوثنية . هنا دخلت كل العلاقات فى إطار جديد لقد سمت المحبة بالسلطان والطاعة . وكل واحد صار للآخر دون أن يتخلى عن وظيفته الخاصة — هنا نظام حرية العلاقة الذى بموجبه يقوم كل واحد بعمل ما وإنما هو لخدمة الجميع !

هذا المجتمع الجديد الذى ظهر ، أى الكنيسة ، إنه « ملكوت الله الحالى فى العالم » إن الكنيسة فى عصر الرسل لم تحاول أن تصلح العالم القديم ولكن تأثيرها الروحى عمل بالضرورة على تثبيت كل الحريات

التي اكتسبت ببطء على مدى الأزمان والتي تنبعث من هذا الاحترام الأساسي للانسان ككائن بشري مدعو إلى ملء حياة الحرية !

ومن ثم وجب على الكنيسة في عالم معقد كهذا أن تبتعد عن روح المنافسة والتسلط والتعصبات والانقسامات ، ويجب على أعضائها أن يصغوا بعضهم لبعض باحترام : والواقع أنه مهما كانت الفروق الثانوية (كالجنسية والعنصرية والجغرافية والتاريخية والحضارية والاجتماعية) التي تفصل بين جماعات بني الإنسان فان هناك مقومات أساسية تدخل في تكوين الإنسان بوصفه كائناً حراً يحيا في العالم ويتعامل مع الآخرين ويسعى جاهداً في سبيل توجيه نفسه وتحقيق مصيره ، وهذه هي التي تسمح لنا بأن نقرر بأن ثمة «قيماً إنسانية مشتركة» تسير على هديها البشرية في كل زمان ومكان — ولو كان كل فرد منا هو ما يصنع من نفسه ، وما يختاره لها فحسب ، لما كانت في الحياة إنسانية ، ولما كان هناك تاريخ ولما تمتعنا بتراث بشري ، وما قامت روابط اجتماعية بين البشر ، ولكن الإنسانية لم تفقد يوماً إيمانها بوحدة النوع البشري ولا بالقيم الإنسانية المشتركة التي تعلو على فوارق الحضارات والأجناس والسلالات والطبقات والطوائف .. الخ . ولو أننا نظرنا إلى سعي الإنسانية الدائب في سبيل معرفة الحقيقة وبلوغ السعادة وتثبيت دعائم الحق والخير والجمال لتحققنا من أن هذه القيم في صميمها إنما هي صور للوحدة البشرية التي تقدسها المحبة الإلهية بكل رغائبها بنفس درجة تحرير الحق الالهي لها ونقلها بذلك من حياة الواجب إلى حياة الحرية عبر الزمان إلى فجر الخلود السعيد !!

تم الكتاب بعونه تعالى

أهم المراجع

١ ـ الميثاق والدستور

٢ ـ وثيقة الحقوق ـ لوليم دوجلاس

٣ ـ دستور الولايات المتحدة ووثائقه التاريخية

٤ ـ مبادىء الفلسفة والأخلاق ـ منهج دراسى

٥ ـ مشكلة الحرية ـ للدكتور ابراهيم زكريا

٦ ـ القانون والقيم الاجتماعية للدكتور نعيم عطيه

٧ ـ مجلة الفكر المعاصر العدد ٧٩ سبتمبر ١٩٧١

٨ ـ الحب الإلهى والوصية ـ مفهوم الحرية ـ كنيسة اسبورتنج

٩ ـ النعمة والإرادة الحرة للقديس أغسطينوس

١٠ ـ الخلاصة اللاهوتية ـ المجلد الثانى ـ للقديس توما الاكوينى

١١ ـ الإيمان بالله فى القرن العشرين للدكتور أدار

١٢ ـ الضمير تأليف أ هالسبي

١٣ ـ مذكرات علم البحث للقس صموئيل حبيب

14— Bible Commeutary Faust & Brown

15 - Prosperity By eharles Filmore

16— Frec Men By Suzanne De Dietrich

17 - The Law of Liberty By Hopkins

18— Spirit and Peality } By Baradeev

19 - Aseeticism in Christiairty } By Baradeev

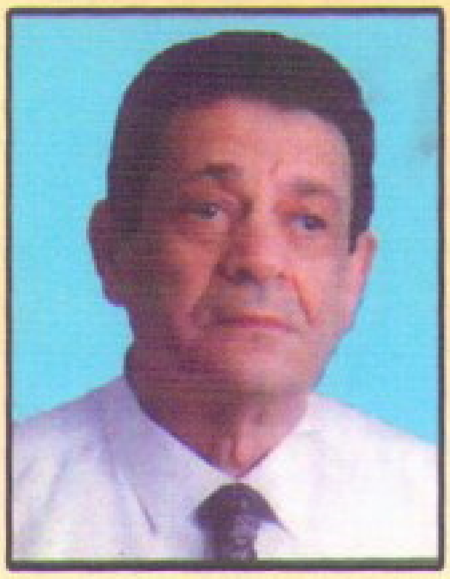

القس صموئيل مشرقى

كم من مرة تتردد هذه الكلمة « أنا حر » ويظن الناس أنهم أحـرار مع أنهم مكبلين بقيود الخطية والموت ولكن فى المسيح فقط تحطمت كل القيود وسقطت السلاسل وانكسر الفخ ونحن أنفلتنا كالعصفور من فخ الصياد، فهل هنـاك مفهوم مختلف للحرية وما هى الحريات المتكاملة؟! هذا ما سنبحر لنعرفه فـى صفحـات هـذا الكتـاب الرائع ويقـوم هنـا الـراعـى الـراحـل القـس / صموئيل مشرقى رئيس مجمـع كنـائس الله الخمسينية وراعـى الكنيسة المركزية بجزيرة بدران بشبـرا بالبحـث عـن معنى الحرية الحقيقية فى هذا التراث الثمين الذى نحاول إبـرازه مـرة آخرى للنـور ليكـون فـى متنـاول الجميـع، ونضعـه بين يدى القدير ليستخدمـه لمجد اسمه القدوس. أمين.